

الأوضاع الصحية وانعكاساتها على المجتمع الريفي اجتماعياً واقتصادياً بالجزائر العثمانية

Health conditions and their repercussions on the social and economic rural community in Ottoman Algeria

د/ آل سيد الشيخ سعاد

جامعة غرداية (الجزائر)

dohaislam@gmail.com

المؤلف المرسل : آل سيد الشيخ سعاد	تاريخ النشر : 2021/09/20	تاريخ القبول : 2021/05/26	تاريخ الارسال : 2021/05/06
-----------------------------------	--------------------------	---------------------------	----------------------------

ملخص البحث:

يعد الاستقرار السياسي والازدهار الاقتصادي والنمو الاجتماعي لأي مجتمع، منعكس شرطي على مدى قلة الحروب والفتن والاضطرابات الداخلية، وحتى الكوارث الطبيعية والأمراض والأوبئة بذلك المجتمع، هذا التصور العام للمجتمعات البشرية عموماً. ومن بوابة التاريخ مع العصر الحديث وبالتحديد بأرض الجزائر نخط الرحال مع العهد العثماني، ولأهمية الوضع الصحي في التشخيص التاريخي لذلك العهد للمقارنة والمقاربة بما يحدث في زماننا هذا لأخذ العبرة والموعظة. فالجزائر لم تكن بيئة خالية من الأمراض في ذلك العهد؛ إذ تتفق أغلب المصادر على ذكر مختلف الأوبئة التي كانت تتعرض لها البلاد خلال العهد العثماني بين الآونة والأخرى، مما نتج عنه تردي الأوضاع الصحية بشكل خطير. ومدى تأثيرها السلبي بمخلفاتها على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي، سواء بالمدن أو الأرياف، ولهذا فقد جاءت أهداف هذه الورقة البحثية تسليط الضوء على الأوضاع الصحية بالجزائر العثمانية وانعكاساتها على المجتمع الريفي اجتماعياً واقتصادياً بالجزائر العثمانية.

الكلمات المفتاحية: الأحوال الصحية، الجزائر العثمانية، الأمراض، الأوبئة، المجاعة، الكوارث الطبيعية، الطب، الأعشاب.

Abstract :

The political stability, economic prosperity and social growth of any society is an evidence for the absence of wars, internal disturbances, diseases and epidemics and natural disasters, in that society; this is the perception of human societies in general. The present paper attempts to shed light on

health conditions in Ottoman Algeria and their repercussions on the rural community socially and economically. Algeria was not a disease-free environment at that time. Most of the sources mention that the country that the country was exposed to various epidemic which resulted in a serious deterioration of health conditions and had the negative impacts on the economic and social levels both in cities and in countryside. The objective behind this paper is to compare this situation to what is happening nowadays in order to learn and get sermon.

key words:

Health conditions, Ottoman Algeria, diseases, epidemics, famine, natural disasters, medicine, herbs.

مقدمة:

ومع ذلك كانت عرضة لأمراض مختلفة، وإن كانت قليلة ولكنها ليست بالخطيرة إذا ما استثنينا الأوبئة ومرض الطاعون ولعل أخطرهما داء الطاعون الذي كان يظهر حسب بعض المصادر في البلاد مرة كل خمس عشرة سنة أو خمس وعشرين سنة⁽¹⁾. وقبل التطرف لآثار هذا الداء عن قرب بريف الجزائر العثمانية برؤية بعض الرحالة والمؤرخين للفترة المعنية، سنعطي مسحة موجزة عن أهم الأمراض التي انتشرت بها.

تعرض سكان الجزائر بمدنها وأريافها للعديد من الأوبئة والأمراض المتكررة من بينها الجداس والرمم الحبيبي وأمراض العيون المتقيحة ومرض الجذري، أو ما يعرف بحمى المستنقعات وحمى التيفوس⁽²⁾. وقد اعتبر هذا الداء من أخطر الأمراض التي فتكت بالسكان فذهب ضحيتها عن ما يزيد عن ألفي شخص⁽³⁾. كما انتشر داء الملاريا وخاصة بالأهالي القاطنون بجوار المستشفيات، فكانوا أكثر عرضة لهذا المرض أو حمى المستنقعات، ومن أهم المناطق التي عانت منه منطقة سهل متيجة وخاصة سكان الأرياف القاطنين به وما يشابهها، عكس المناطق الجبلية والتي يتميز جوها

تعد الأمراض والأوبئة بالإضافة إلى المجاعات والكوارث الطبيعية من أهم العوامل المسببة في تأخر أي المجتمع وضعفه، نظراً لما تلحقه من أضرار بالقطاعات الاقتصادية والاجتماعية والنمو الديموغرافي، لأن مستوى المعيشة لأي عصر أو بلد يقاس بالأحوال الصحية السائدة فيه، فلهذه الأحوال الصحية دور هام وحاسم وأهمية بالغة لفهم الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، وذلك أن الأحوال الصحية غالباً ما تؤثر إيجاباً أو سلباً على مستوى المعيشة و*من ثم تكون لها انعكاسات على الحياة الاجتماعية والنمو الديموغرافي، وبالتطرق لأهم الأمراض والأوبئة التي انتشرت بالمدن الجزائرية العثمانية وانعكاساتها على القرى والبوادي الريفية والصحراوية يكشف النقاب عن الوضع الصحي لتلك المناطق المحورية في الجزائر العثمانية.

1- الأمراض:

على الرغم من المناخ الصحي المعتدل الذي كانت تتمتع به الجزائر خاصة بالمناطق الساحلية منها،

بالصفاء⁽⁴⁾. وقد أكد هذه الحقيقة " حمدان خوجة" بقوله: " فهذه الأرض لا تعدو تكون أرض أوحال أو مستنقعات ومحط ضرر وأذى...لقد استولت على هذا السهل الحمى"⁽⁵⁾.

كما ذكر العالم النباتي دوفنتان بأن هواء متيجة مضر جداً في فصل الصيف بسبب المياه التي تتراكم في السهل خلال فصل الشتاء فينتج عنها مع ارتفاع درجة حرارة الصيف انتشار الروائح الكريهة والحشرات الضارة في المنطقة، وتمتد مضار هذه الحمى طيلة فصل الصيف حتى الخريف، ومنهم من يرى وطأتها كانت أكثر ضرر في فصل الربيع، فتلتهب الحمى في الأهالي فيجدون صعوبة جمة في معالجتها لقلّة معارفهم الطبية فيستحيل عليهم الاستقرار بهذه المناطق الضارة⁽⁶⁾.

كما كان سكان عنابة عرضة للحمى العنيفة المستوطنة في المنطقة، كما عرفت المناطق المجاورة لوهراة انتشار للبحيرات المالحة وكثرة المستنقعات⁽⁷⁾، كما كان كثرة الضباب مع اقتراب الليل في المناطق التي تسود فيها المستنقعات المضرة بالصحة⁽⁸⁾، وهذه الحمى الوبائية تفشت في العديد من المدن والأرياف ببواديها على حد سواء، وهذا ما ذكره أبو ناصر الدرعي عن حمى أهل أم القرار القبليّة بناحية الظهرا بالغرب الجزائري: " وتلقانا بعض من أهل أم القرار القبليّة واشتكوا الحمى وذكروا أنها أضرت بهم كثيراً ودعونا الله لهم بالعافية الدائمة"⁽⁹⁾.

والأمر مشابه مع مدينة تفرت وضواحيها وهذا ما شهد به العديد من الرحالة أمثال: ابن الدين الأغواطي وهانريش فون مالتسان، يقول الأغواطي: " ولا يأتي لهذا المكان عربي ما عدا المصاب بالحمى، ولكن منابع المياه فيها بكثرة"⁽¹⁰⁾. ومن هذه الأخيرة وهي العلة في تفشي الحمى المستنقعات المنتشرة حول المدينة

بسبب كثرة مياهها ومصدر نعمتها ونقمتها في نفس الوقت، ومن أحسن من فصل في هذا الأمر فون مالتسان في قوله: " ويحيط بتقرت مستنقع، ومن الغريب أن أهل توقرت يطلقون عليه البحر وأثناء نزول المطر كان المكان كله يبدو وكأنه قد تحول إلى مستنقع، وجو مدينة تفرت غير صحي إلى أبعد حد، إذ تنتشر الحمى في جميع الشهور تقريباً، ويقال أنها لا تريح الناس من شرها إلا في الشتاء... ولكن مصدر هذه الحمى يعتبر في الوقت نفسه...أكبر نعمة في هذه البلاد، فهو يكمن في نظام الآبار الارتوازية، ذلك أن هذه الآبار تجود بماء غزير يفوق حاجة الناس إليه، فتنشأ عن الفائض من برك ومستنقعات، تتولد عنها الجراثيم الخطيرة، ومن أراد أن يشفى من الحمى فإن عليه أن يضرب خميته في الصحراء فترة طويلة"⁽¹¹⁾، يقول عنها أبو القاسم سعد الله هي حمى: " مشهورة عند سكان الناحية بمرض يسمى التهم (التهم) بتشديد التاء وفتحها وفتح الهاء وسكون الميم وهو نوع من الحمى وذلك في بعض السنة"⁽¹²⁾.

ليعمم هانريش هذا الحكم عن الوضع الصحي المزري مع الحمى على جميع الواحات الصحراوية في قوله: " وجو الواحات الصحراوية كلها غير صحي مثل جو توقرت، في حين أن الصحراء الحقيقية، أي التي تخلو من الواحات تتمتع بجو صحي بصفة عامة"، ولكن في الواقع لم تشر المصادر وكتب الرحالة وغيرها لهذا التعميم على الواحات الصحراوية؛ فليست كل الواحات الصحراوية تزخر بمياه جوفية كأنها بحار من تحتها لتضر بها.

هذا من ناحية بالنسبة لمسببات الحمى ومن ناحية أخرى وهو سبب وجيه يتمثل في الظروف الصعبة التي كان يعيشها بعض سكان الجزائر مثل الفقر

والمجماعات المهلكة، فكانت سببا مركزياً في ظهور الحمى التيفوسية التي تعتبر بنت الفاقة وسوء التغذية⁽¹³⁾. ومن هنا ذهب البعض إلى أن معظم سكان الجزائر كانوا عرضة للحمى بأنواعها المختلفة، الحمى المثلثية والحمى الباردة ولهذا كتب بعض الكتاب الفرنسيين أمثال **Finot** متحدثاً عن الشعب الجزائري: "أنه شعب يعيش مع الحمى"، وكتب آخر بنوع من السخف على ما أصاب الجند الفرنسي من حمى لما دخل الجزائر بداية الاحتلال ليصب جماح غضبه باللوم على البيئة الجزائرية الجافة، التي تغزوها الحشرات وتسيطر على أراضيها المستنقعات⁽¹⁴⁾. وهنا أيضاً نفس نقد يقال من عدم قبول التعميم؛ فهذا لا ينطبق على المنهج العلمي الدقيق، فليست كل أرض الجزائر بيئة جافة ومستنقع أو مرتع للحشرات. وكلها تدخل ضمن الإنزلاقات عن الموضوعية وطغيان الذاتية في الكتابة التاريخية لأغراض استعمارية. ومع ذلك لا ننكر الحقائق التاريخية فجهل أغلبية السكان بالوسائل الوقائية وانعدام الرعاية الصحية أنتج بالضرورة انتشار العديد من الأمراض كداء العينين وأمراض جلدية مختلفة⁽¹⁵⁾.

والواقع كان هناك عدة طرق لعلاج الحمى بمعارف الطب التقليدي أو غيرها، فعلى سبيل المثال بحارة الساحل كيف كانوا يعالجونها عن طريق الخبرة، فعندما يصاب الجداфон المسيحيون على السفن الجزائرية بالحمى كان رب السفينة يرغمهم على الاستمرار في الجدف ويطعمهم الخبز المجفف، والماء العذب، واللحم المملح، فكان ذلك يساعدهم على إخراج العرق مما كان يعجل في شفاءهم. وكان رب السفينة يلجأ أحياناً إلى استعمال إحدى الحيل، التي أثبتت نجاعتها، فينزل إلى البر، و يحمل معه المريض مقيد الأيدي ثم يأمر بقية البحارين بإشعال النار، ويوهم المريض بأنه سيلقى به في

النار، وعندما يدرك المريض ما كان ينتظره، يلوذ بالفرار. وقد لوحظ أن الجري، كان يساعد المريض على إخراج العرق، ويشفى بذلك من مرضه⁽¹⁶⁾.

ومن الأدوية الناجعة عند المتخصصين في علاج الحمى، نقصد الأطباء أمثال عبد الرزاق بن حمادوش، أقرص الكين أو الكينة^(*)، وهذا ما قاله عنه هذا الطبيب الجزائري وهو بالمغرب الأقصى: "أصابني حمى شديدة، فلم أستطع القراءة، حتى ألهمني الله أن أشتري ثلاثة أثمان من الكين كينه، فاشتريتها بستة موزونات...دققت الثمن الأول وشربته في فنجال قهوة من البن، فلما استقر في بطني أمسكت الأعضاء كلها عن الاختلاج إلا عرقاً واحداً في يد اليمنى بقي يختلج اختلاجاً يسيراً، فلما شربت الثمن الثاني انقطع من كل عضو، ثم شربت الثمن الثالث فلم يبقى ألم منها"⁽¹⁷⁾. أما الرحالة المغربي أبو القاسم الزياني فهو الآخر عالج نفسه من حمى أملت به بمعرفته الطبية الخاصة من تورم أصابه بأحد أعضاء جسده ولكنه للأسف لم يصف لنا هذا الدواء واكتفى بقوله: "رأيت المحل الذي أصبت فيه متورماً فعالجته بما عرفت وأنفجر، وصرت أعالجه بالمراهم إلى أن حصلت الراحة"⁽¹⁸⁾، أما عن الظاهرة الإستشفائية المنتشرة في بعض الأرياف والتي تدخل ضمن المعتقدات الخاصة، كتردد بعض الأمهات بأطفالهن على بعض العيون اعتقاداً من هن أن مياهها تشفي من كل الأمراض ومن أشهر تلك العيون عين الدواء الواقعة بعرض بني إيراثن الواقعة في منطقة القبائل⁽¹⁹⁾.

2- الأوبئة:

يروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما سئل عن الطاعون قال: " غدة كغدة الإبل، المقيم فيها كالشهيد والفار منها كالفار من الزحف"⁽²⁰⁾، فهو بهذا التعريف النبوي الشريف يثبت أنه جرثومة معدية سريعة

الفتك بالإنسان مثلها مثل الجيوش الزاحفة، أما التعريف العلمي للطاعون فهو: "مرض تتسبب فيه جرثومة يارسين⁽²¹⁾"، كان انتقاله إلى الإنسان عن طريق الحشرات أو الحيوانات أهمها: الفئران أو قمل الفئران، يعرفه ابن النجيم المصري بأنه قروح تخرج في الجسد فتكون في المرفق والآباط والأيدي وسائر البدن ويكون معه ورم وألم شديد وتخرج تلك القروح مع هيب في ارتفاع درجة الجسم⁽²²⁾.

ولهذا المرض عدة أنواع وهي كالتالي: الطاعون الحيواني والطاعون الرئوي⁽²³⁾.

أما الوباء فيعرفه ابن خلدون بأنه الموتان⁽²⁴⁾، وتفسير ذلك يعود إلى كثرة الموت أو شمولية الموت الذي ينتج عن الوباء والهول الذي يحدثه الوباء بعد انتشاره وسط الإنسان والماشية، بالإضافة لانتشاره وسط الحيوانات الأخرى. أو لكونها أمراض عامة تشمل وفداً كبيراً من الناس، وقد عرفت بأنها الأمراض الوافدة؛ أي التي تأتي من خارج البلد⁽²⁵⁾. فهي أيضاً مرض مشترك بين الإنسان والحيوان تسببه بكتيريا، أو فيروسات تختلف حسب نوع المرض البائي، وتكون سريعة الانتشار من الشخص المصاب إلى الشخص السليم عن طريق عدة وسائط أهمها: الإنسان، والماء والهواء وبعض الحيوانات القارضة كالجرذان والكلاب البرية والسنجاب والأرنب⁽²⁶⁾. إن الخلط بين مفهوم الوباء والطاعون لم يقتصر على بعض اللغويين فقط بل شمل الإخباريين أيضاً، في حين كان مفهوم الوباء في المصطلح العلمي أشمل وأعم من مرض الطاعون، فكل طاعون وباء وليس كل وباء طاعون، أي أن الوباء قد يشمل أمراضاً عديدة من بينها الطاعون⁽²⁷⁾.

اجتاحت علة وباء الطاعون الجزائر العثمانية مرات عديدة، وفي سنوات مختلفة، وأدى إلى وفاة خلقاً

كثيراً من الناس في المدن والأرياف، إضافة إلى الخسائر المادية الأخرى كهلاك الماشية، وأسباب كل ذلك جاء من البعد؛ انتقل هذا الوباء إلى الجزائر سنة 1523م بعد أن اكتسح تونس سنة 1522م، كما أجمع العديد من المؤلفين أن الحقبة الفعلية بالجزائر لوباء الطاعون بدأت سنة 1552م؛ مع دخول الجزائر في عهد رياس البحر والتبعية للدولة العثمانية⁽²⁸⁾.

ثم توالى طعنات هذا الوباء القاتل بتواريخ بارزة حطت رحالها على الجزائر في سنوات متلاحقة مخلفة وراءها المهالك نذكر منها سنة 1582م، إذ ضرب الطاعون قسنطينة وإقليمها، ومات بسببه أناس كثر⁽²⁹⁾. ثم وباء طاعون عام 1602م أيضاً بقسنطينة، وكذلك سنة 1622م، وسنة 1644م، وطاعون 1648م-1650م الذي فتك بالجزائريين فتكا رهيباً، وقد تحدث عنه أبو سالم العياشي بنوع من الإسهاب في رحلته بالمناطق التي مر بها بالجزائر عام (1060هـ/1649م-1650م)، عن هذا الوباء الفتاك الذي ضرب مدينة بسكرة والقرى المجاورة لها مثل خنقة سيدي ناجي وبلدة سيدي عقبة، فعن هذه الأخيرة يقول العياشي: "وفي الغد جئنا لبلد سيدي عقبة وتحققنا الوباء فيه وفي البلاد التي في أطرافه وفي بسكرة ولم ندخل لزيارته وبتنا بينه وبين بسكرة"⁽³⁰⁾، وعن خطورة وباء مدينة بسكرة يقول العياشي: "كان وباء مفرطاً مات به في بسكرة على ما قيل نحو سبعين ألف نفس وقد دخلنا المدينة عقبه فوجدناها أكثر حوماتها خالياً، ومساجدها دائرة"⁽³¹⁾،

ونفس الأمر قاله محمد بن عبد السلام الناصري عن هذا الوباء: "أنه مات بالوباء بالمسجد الأعظم من البلد سنة خمس وخمسين ومائة وألف اثنا عشر ومائة رجل، وفي السنة المذكورة مات بها في ثلاثة أيام خمسة

عشر مائة ألف نفس، فكان ذلك سبب خلائها إلى الآن، فقلت البلاد اعترأها الخلاء قبل زمان أبي سالم العياشي، كما في رحلته، ولم تعهد بعد ذلك بها ولا عشر معشار هذه العمارة، اللهم إلا إن كان المراد بالعدد المذكور من مات بسائر بلاد الزاب سهلاً ووعراً فممكناً" (32).

ونفس الشأن حدث بخنقة سيدي ناجي مما دفع أهلها لطلب فتوى من العياشي في جواز الفرار من الوباء إذا طرق بلادهم، وفي هذا الشأن تحدث أيضاً عن الشيخ أبو المهدي ودوره البالغ في خدمة شيخه التواتي الذي طعن وتوفي بسبب ذاك الوباء، ورغم قدر هذا الشيخ بين أهله وذويه فلم يجد غير صديقه الشيخ أبي المهدي عون له في مرضه حتى وافته المنية (33). وكل ذلك يعود للهول والفرع الذي أصاب الناس من هذا الوباء الفتاك، وهذا ما أكدته الوثائق في شدته على مدينة بسكرة وضواحيها تأكيداً لما قاله العياشي سابقاً في قوله: "ثم نزل عليهم الوباء فلم يبق إلا ضالة من الناس"، وفي موضع آخر عن وباء بسكرة أيضاً "مع نفوذ الوعيد فيها من أمر الوباء" (34).

كما وصل الذعر من ذاك الطاعون حتى أبواب مدينة الأغواط التي ناءت بسلامة أهلها من الوباء عن منافعها الاقتصادية والثقافية مع ركب الحج المغربي وانعكاسات ذلك الذعر على كل الأصعدة النفسية والاقتصادية برفع الأسعار والإضرار بالرعية والتجار يصف ذلك العياشي في قوله: "وجدنا الغلاء كثيراً عندهم مقدار مدين فاسيين بريال قمح، فلم يخرج أحد منهم إلى الركب، وكانوا يدلون الزرع من فوق السور ويأخذون الريال ويغسلونه ولا يتناولونه إلا بعد الغسل" (35)، على الرغم مما تتمتع به مدينة الأغواط بموقعها الجغرافي الحصين ضد الأوبئة وهوام الأرض؛ كما بين

ذلك ابن الدين الأغواطي: "لا تقترب العقارب ولا الطاعون منها لأنها مبنية في موقع مفضل" (36).

واستمر هذا البلاء مدوياً من فترة لأخرى وكان أشدهم فتكاً طاعون عام 1654م الذي أودى بحياة ثلث سكان الجزائر، وكذلك طاعون سنة 1662م، وطاعون 1664م، الذي أدى إلى تناقص سكان مدينة الجزائر إلى أقل من النصف، فلم يعودوا يتجاوزن الثلاثين ألف نسمة، وهلك من جرائه حوالي عشرة آلاف أسير أوروبي سنة 1680م، قبل أن ينتشر انتشاراً واسعاً سنة 1786م بالمغرب الأقصى، ففي عام (1199هـ/1784م) يذكر ابن حمادوش في رحلته أن أحد رفقاءه في الرحلة إلى المغرب الأقصى، توفي على ظهر سفينة أثناء وصولهم إلى جبل طارق (37). فيما عم شرق الجزائر إضافة إلى القطر التونسي سنة 1198هـ/1787م، ثم زحف نحو بابلج الغرب زحفاً كاسحاً؛ حيث مس سكان تلمسان ومعسكر على الخصوص، حتى خرج أبو القاسم الزياني صاحب الترجمانة الكبرى من تلمسان هروباً منه، لأنه كان عاماً في العمائر بين هذه المدينة وبين مدينة الجزائر، وقد أخلى البلاد وأفنى أهلها من شدته، حتى أن الزياني ما مر بمنزل إلا وجد أهله يدفنون موتاهم (38). ليصل عدد ضحاياه عام 1788م إلى 15793 ضحية منهم 13482 مسلم و 1771 يهودي و 540 مسيحي، وكان عدد ضحايا المسلمين يصل يومياً إلى 200 أو 240 ضحية (39).

ومزامناً للزياني في فترة حكم الباي محمد الكبير على معسكر، اجتاحت البلاد مجاعة كبيرة كانت آثارها وخيمة جداً، فقد "حدث بأول مملكته بالمعسكر مسغبة عظيمة هلك بها أناس كثيرون إلى أن أكلت فيها الميتة والدم ولحم الإنسان والخنزير والعياذ بالله من ذلك، ثم حدث الطاعون الذي لم يحدث في هذا الإقليم قبله،

فمات به جل الناس بدواً وحضراً، آل الأمر فيه إلى أن انتقل أهل الحضر والباي بأهله ومخزنه إلى البدو في خيام الشعر طاعنين ظعون الأعراب البادية زماناً طويلاً، وقد جعل الباي خيمة حمراء من الوبر وأدار بها الزمالة، فسمي العام بعام الخيمة الحمراء⁽⁴⁰⁾.

وهذا ما ذكرته الدراسات المختلفة فخلال سنة (1200هـ / 1786م)⁽⁴¹⁾ أي في زمن حكم " محمد بن عثمان الأكحل" ظهر طاعون ببيلك الغرب الجزائري، بعدما كانت المجاعة السابقة له قد تركت آثارها السلبية بشكل كبير في حياة سكان البيلك بخمس سنوات، أي سنة (1195هـ / 1781م) وبتتابع القحط مع الوباء وكثيراً ما يحدث عندها تكون نتائجهما وخيمة، لأن الجوع أو القحط الشديد يفقد الجسم كل قدراته على التجاوب مع الحياة فإذا تبعه الوباء يكون فتاكاً والعكس. وهو ما حدث فعلاً ببيلك الغرب الجزائري خلال تلك الفترة⁽⁴²⁾.

كما أصاب طاعون مدينة الجزائر عام 1793م ووصلها عن طريق بحارة القسطنطينية، وهذا ما تؤكد رسالة من القنصل الفرنسي إلى مرسوله في عنابة في 23 جواني 1793م، قائلاً: " إن الطاعون أصاب البسكرة العاملين بمدينة الجزائر وانتقل بعدها للأرياف حتى وصل مدينة البليدة"⁽⁴³⁾، ثم إمتد إلى جهات أخرى ومن بينها قسنطينة ولم ينقطع هذا الوباء بل استمر في التصاعد إلى أن بلغ أوجه سنة 1794م، بحيث أرغم السكان للهروب نحو الأرياف، وهذا عكس ما أوصى به النبي صلى الله عليه وسلم عندما قال: " إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه"⁽⁴⁴⁾.

حتى قدر عدد ضحاياه بين سنتي 1792م - 1793م بـ 12 ألف ضحية⁽⁴⁵⁾.

ثم توالى انتشاره أعوام متتالية منذ عام 1799، 1800، 1801، 1802، 1803، 1804م⁽⁴⁶⁾، هذا إضافة إلى طاعون سنة 1812م، وبعد سنين قلة من ذاك الوباء يتحدث أبو عبد الله ابن عثمان المكناسي عام 1816م، عن وباء آخر يطل من جديد على الجزائر بحصاد دامي للأنفوس مما أضطر بهذا الأخير من تخفيف زيارته للجزائر: " ولما وصلنا إلى الجزائر خيمنا بظاهرها ولم ندخل إليها وقد وجدنا فيها الوباء نعوذ بالله، وقد كان قبل وصولنا إليها قوياً، فكان يموت كل يوم على ما يحكى لنا نحو الثلاثمائة وقد حق أمره لما كنا هنالك فكان يموت في اليوم نحو العشرة، وأقمنا بظاهرها يومين "، وقد أكد المكناسي على خطورته وانتشاره بمدينة الجزائر وأعمالها أي المناطق والمدن المحيطة بها وقد مات بسببه خلقاً كثيراً⁽⁴⁷⁾.

أما في سنة 1817م فدام الطاعون ثلاث سنوات وعم جميع أنحاء البلاد، وحسب شهادة القنصل البريطاني وليام شو فإن جماعات من الأهالي كانوا يموتون في الشوارع، وفي السنة الموالية قضى وباء 1818م، على ما يزيد عن أربع عشرة ألف نسمة وتضررت به أغلبية الجهات الجبلية ومنطقة القبائل، وقد زادت حدته ما بين سنتي 1817-1822م، ويعد هذا الطاعون أكبر معضلة عرفتھا البلاد خلال العهد العثماني، فقد عم جميع أرجاء الإيالة، ووصل إلى مشارف الصحراء خلفاً وراءه كارثة إنسانية⁽⁴⁸⁾، كانت نهاية هذا الطاعون حسب أحمد شريف الزهار في سنة 1238هـ، حيث انقطع هذا الوباء من الجزائر، وكان قد حل بها في رجب من سنة 1232هـ وبقي سبع سنين إلى آخر سنة 1239هـ⁽⁴⁹⁾، إذ قدر عدد ضحاياه بـ 20 ألف ضحية بإيالة الجزائر وحدها، وكان هذا التاريخ آخر عهد للطاعون بالجزائر قبل الاحتلال الفرنسي⁽⁵⁰⁾.

ما يستهل به الحديث بعد هذا العرض الموجز عن أهم الأمراض والأوبئة التي عانت منها الجزائر خلال الفترة المدروسة، موقف السلطة الحاكمة في البلاد من تفشي هذه الأمراض وسط الرعية وخاصة وباء الطاعون منها؟ وبصيغة أدق هل حاولت هذه السلطة القيام بإجراءات خاصة اتجاه هذه المشاكل الطارئة، كنظام الحجر الصحي الذي يعرف اليوم تفاديا لكارثة الوباء أو على الأقل الحد من انتشاره .

فحسب ما ذكرته بعض المصادر لا يمكن الجزم بالإجابة القطعية أن تطبيق الحجر الصحي كان قاعدة حكومية في مواجهة الوباء، فالطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري ذا الدراية الكافية بأهمية هذا الإجراء إذا وجد وباء، ذكر قصة تدل أن الحجر الصحي كان معمولاً به في ذلك الزمان: " إذ فرض الداوي الحاكم آنذاك دخول سفينة على متنها حجيج موبوءين من الإسكندرية، وأمر بأن لا يسمح لها بالدخول إلى بعد التأكد من براء من على متنها"⁽⁵¹⁾

ولكن ما يثبت أن أمر الحجر الصحي كان معمول به الإجراء الذي قام به الحاكم الفرنسي للقالا عام 1794م بفضل التدابير الوقائية التي أتخذها حاكم القالة الفرنسي بإذن من الباي، وتتلخص هذه التدابير في إغلاق الموانئ ومنع القادمين إليها من الدخول وعدم الاتصال بالبواخر الآتية المجهولة الأصل، فأتت هذه التدابير أكلها مع أهل الساحل من الوباء، وإن كانوا مسيحين ولكن أخذوا بوصايا الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث السالف الذكر، وإن كان عن غير قصد بخلاف المسلمين⁽⁵²⁾؛ فقد تهاونوا فيها بحجة الرضا بالقضاء والقدر فماذا كانت النتائج وخيمة ووبالاً على الجزائر.

ومثل هذه الحادثة تكررت في أواخر العهد العثماني بالجزائر؛ مع العدوى التي انتقلت إلى الجزائر عن طريق البحر من الإسكندرية، وقد أعيد من الميناء سبعة أشخاص كانوا قد حملوه معهم، فاستدعى الداوي الدكتور أسانسي، وطلب منه أن يتأكد من أنه الطاعون الذي يطلق عليه اسم الحبوة بالجزائر، وعندما تأكد أسانسي من أنه الطاعون، أخبر الداوي وقال له بأن الطاعون لا يزال في أماكن يمكن الحد من انتشاره والتحكم فيه، ما دام قد انحصر حتى ذلك الحين في ملاحى الباخرة الذين حملوه معهم، وكان الداوي مقتنعاً برأي أسانسي غير أنه لا يستطيع أن يتخذ القرار الحجر الصحي قبل أن يأخذ رأي الديوان، ولما اجتمع الديوان لدراسة الأمر عارض الوزير الأول إتخاذ الإجراءات الوقائية وقال: " أن ذلك يعني تعريض المؤمنون لمحن أعظم⁽⁵³⁾، ومصائب أكبر فوافقه الديوان على رأيه وبذلك تحتم على الداوي أن يتخلى عن نيته الحسنة. يؤكد هذا النص كما ورد في العديد من المصادر من أن الحجر الصحي بالجزائر مرتبط بإرادة الداوي وباقي رجال الدولة ومدى وعيهم لأهميته، فمنهم من كان يطبقه ومنهم من كان يرفض تطبيقه تسليماً بالقضاء والقدر كما في هذه الحالة التي ذكرها شونبيرغ، حيث رفض الديوان تطبيق الحجر الصحي رغم موافقة الداوي "، فماذا كانت النتيجة كما وصفها " الدكتور أسانسي وقتئذ كان: " الطاعون يحصد أرواح الناس خلال أربع سنوات" الموالية لتلك الحادثة⁽⁵⁴⁾.

وهذا ما يصرح به "حمدان خوجة" الذي سمحت له مكانته الاجتماعية بالتعرف على أوربا، حيث عاب على المسلمين تعصبهم لما اكتشفه الأوروبيون وعدم اقتدائهم بهم لدفع المضرة، والمقصود هنا عدم استعمالهم للحجر الصحي: " ان بعض بلاد الفرنج كاسبانيه...

فإذا قدم أحد من بلاد بها الوباء لم يقبلوه ويردونه " (55).

ما يمكن استخلاصه من أن تطبيق الحجر الصحي لم يكن قاعدة صحية أو وسيلة وقائية التزم بها النظام الحاكم خلال كل الفترة، بل إن الأمر كان متوقفاً على الحكام أنفسهم، وما زاد في خطورة هذا الداء وتفاقمه هو موقف الأهالي؛ بدعوى التوكل على الله والإيمان بالقضاء والقدر جعلهم يقللون من شأن الإجراءات الوقائية⁽⁵⁶⁾. إلى جانب غياب عامل مهم جداً وخاصة بالأرياف عامل النظافة عند بعض القرى كقرية عين ماضي بنواحي الأغواط وخاصة عند النساء، ذكر هذا كل من الحضيكي وأبو ناصر الدرعي فهن: "لا يغتسلن من الحيض ولا من الجنابة، مخافة من الماء" (57)، وهذا له تبعاته على الجانب الصحي على أهل تلك القرية وما شابهها، باعتبار المرأة كما يقال نصف المجتمع وتنجب النصف الآخر. ولكن الأمر لا يقال على جميع القرى والأرياف الجزائرية في ذلك الوقت، فعلى سبيل المثال ما قاله الرحالة عبد الرحمن بن إدريس التلاني الجزائري (ت 1233هـ / 1817م)، عن إحدى قرى واد مزاب المعروفة بالقرارة وما عرف به أهلها عرب النوايل من حب النظافة: "بل هم الغاية في ذلك، أهل وضوء وصلاة..." (58).

ولعل من أهم الأسباب المباشرة لانتشار وباء الطاعون عدم الاهتمام بالعلوم الطبية من قبل الجزائريين أو اضمحلال العلوم العقلية بما فيها العلوم الطبية⁽⁵⁹⁾، خلف من وراءه نتيجة محتومة ولعلها من الأسباب الرئيسية التي ساهمت في عدم السيطرة السريعة على انتشار الأوبئة، مع غياب مؤسسات استشفائية أو طبية محترمة أو بالأحرى تكاد تكون منعدمة، إذ لا تشير المصادر على اختلافها إلا إلى النزر القليل جداً منها إلا

المستشفيات الخاصة بالأسرى المسيحيين وكان أولها الذي أسس عام 1546م، ثم المستشفى الاسباني والذي يعد أكبر مستشفى في مدينة الجزائر، أسسه "الأب كيسان" عام 1575م، كما أسست مستشفيات أخرى خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر وكلها خاصة بالمسيحيين. أما عن المستشفيات الجزائرية أو التركية بالجزائر فهي مغيبة، ومن قامت بأدوارها وكبديل عنها وإن كانت بشكل متواضع بعض الزوايا وخاصة بالأرياف، فقد قامت مقام المرافق الصحية، تستقبل الحجيج والمسافرين والفقراء، وتقدم لهم بعض الإسعافات حسب طاقتها⁽⁶⁰⁾.

أما عن وضع الطب والعلاج والأطباء بالجزائر فلعل أصدق تعبير ما ذهب إليه الطبيب الرحالة الإنجليزي توماس شو (Dr thomas shaw) الذي أكد تدهور وضعية الطب بالجزائر، كما في بقية الولايات العثمانية، وخلص إلى القول: بأن "الطب لم يكن يسير وفق قوانين معينة أو مدارس، بل كان يعتمد على ما ألفه العرف" ولكنه اعترف بقدرة بعض الأطباء الجزائريين على المعالجة ببعض الأعشاب⁽⁶¹⁾. أما عن عدد المشتغلين بالطب في الجزائر فهو قليل، إلى الحد الذي جعل بعض الرحالة الأوروبيين يجزم بعدم وجود طبيب واحد بالجزائر من ذلك لوجي دوتاسي (Laugier de tassy)، الذي زار الجزائر سنة 1724م، وذهب إلى أن: "العرب لا يعرفون طبياً غير الطبيعة"، وبأنه "لا يوجد أي طبيب لا في مدينة الجزائر، ولا في أي ناحية من المملكة"⁽⁶²⁾، ولكن الحكم ليس على هذا الإطلاق فالواقع على الرغم من عدم وجود أطباء متخرجين من مدارس طبية، فقد وجد بعض الأطباء التقليديين المهرة، الذين أحرزوا نجاحاً في معالجة بعض الأمراض بالطرق التقليدية البسيطة التي

يعرفونها ولكن كان عددهم قليلا، ويبدو أن كفاءة الأطباء الأوربيين المتخرجين من الجامعات المتخصصة في الطب نالت قصب السبق في الجزائر⁽⁶³⁾.

وكما أسلفنا ونظراً لقلّة المتطبين بالجزائر وثق الجزائريون حكماً ومحكومين بالأطباء الأوربيين، الذين اكتسبوا احتراماً وتقديراً لمعارفهم الطبية، وذلك ما أكدته هابنسترايت بقوله بأن الجزائريين: "يحملون نظرة جيدة عن كفاءة الأطباء النصارى في هذا الشأن، ويدعوهم بالعلماء تعبيرا عن التقدير الخاص الذي يحضون به لديهم"⁽⁶⁴⁾. أما عن الحكام فقد كان دايات الجزائر وكبار المسؤولين في الدولة يهتمون بشؤون صحتهم الخاصة؛ ويتخذون لهم أطباء كلما وجدوا إلى ذلك سبيلاً، وكانوا حريصين على اتخاذ أطباء أكفاء، ولهذا لجأوا إلى الأطباء الأوربيين ومن الدايات الذين استفادوا من خدمات الأطباء الأوربيين أمثال: الداى علي خوجة (1817-1818م) الذي أتى بالطبيب الإسباني خوان فرنندز دي لاس هراس (Dr juan fermangez de las Heras) بعد اشتداد وطأة الطاعون في جانفي 1818م⁽⁶⁵⁾، كما كان لبعض البايات أطباء يراعون صحتهم من ذلك باي قسنطينة الباى قليان حسين بوكمية (1713-1736م) الذي كان له عام 1713م طبيب هولندي يسمى سانسون (Sanson) يشرف على صحته⁽⁶⁶⁾.

وعلى الرغم من ذلك فقد وجد بالجزائر أطباء ومتطبين آخرون من أصول جزائرية، كانت لهم مؤلفات في الطب منهم الرحالة أحمد بن قاسم بن محمد ساسي البوني⁽⁶⁷⁾. كما ألف عبد الرزاق بن حمادوش كتاباً في الطب وصنع مستحضرات طبية، وقد نوه بمكانته العديد من المؤرخين الجزائريين كالمؤرخ أبو القاسم سعد الله الذي قال عنه أنه: "جاء بعد ظلام دامس أصاب الحضارة

الإسلامية، ويضيف قائلاً: "...وإذا عرفنا أنه كان في القرن الثاني (18م) معاصر لعهد الاستنارة في أوروبا، أنه كان عندئذ أقرب في تفكيره واهتمامه إلى العلماء الأوربيين منه إلى العلماء المسلمين الخاملين"⁽⁶⁸⁾

كما وصف القسيس لابي بوراي (point L'Abbè) رأي هلتون سمبسون (Hilton Sompson) الذي قضى أربع سنوات بالجزائر واختلط بسكان الريف، وصاحب أطباء الجزائر -في قوله بأن: "حرفة الطب بالجزائر يرثها الابن عن أبيه، ولهم كتب قيمة في هذا الميدان...وهي حرفة سرية أصحابها ماهرون في علم ثقب العظام أو استبدال عظام الإنسان بعظام الحيوان...ولهم دراية فائقة بعلم النبات، يجمع الطبيب بنفسه الأعشاب من الغابة، ثم يجففها أو يقطرها، ويزنها ويمزجها ويحضرها للمرضى"⁽⁶⁹⁾. أما عن أوصاف الأدوية بالإضافة لما قيل يروي الطبيب والرحالة الألماني هابنسترايت، الذي حضر للداى عبدي باشا (1724-1732م) دواء واحد بطلب منه، وعلل ذلك بقوله: "ما دمت لا أستطيع أن أقنع هؤلاء الناس، بأن كل مرض من الأمراض يتطلب دواء خاصاً، فهم يعتقدون بأن دواء واحد كفيلاً أن يشفي كل الحالات المرضية"⁽⁷⁰⁾، وإن كان هذا الكلام لهابنسترايت فيه أخذ ورد وتظهر فيه بعض المبالغة.

أما التداوي بالأعشاب الطبية فكان أمراً شائعاً أيضاً عند سكان الأرياف، مع الطب الشعبي أين يعلق حمدان خوجة عن أهل البوادي سكان السهول، قائلاً بأن العلاج عندهم: "عبارة عن نباتات معروفة بنجاعتها لأن السكان هنا لا يعرفون مبادئ التطبيب، وبالنسبة لهم فالطبيعة وحدها هي التي تصنع المعجزات، ومن العادة أنهم في مثل هذه الحالات يلجؤون إلى الحمية"⁽⁷¹⁾.

3- المجاعات والكوارث الطبيعية:

كان من بين الأسباب المباشرة لموجات المجاعات بالجزائر العثمانية مدغها وأريافها تردي الأحوال الصحية للسكان جراء تفشي الأوبئة والطواعين في غالب الأحيان، فجرت من خلفها وبالأعلى على البلاد والعباد باختفاء الأقوات في الأسواق فساءت الأحوال الاقتصادية، مما جعل الحالة المعيشية للرعية في بعض السنوات سيئة للغاية وغير محتمة، فهلك الناس نتيجة الجوع والمسغبة⁽⁷⁵⁾. ومن نجى من بلاء الوباء أو الطاعون خطفه مخلب الجوع والفاقة، مما نتج عنه اغتار ديمغرافي سريع في أواخر العهد العثماني بالجزائر كما أسلف الذكر.

وإلى جانب تفشي الأوبئة والطواعين كأسباب جوهريّة لظهور المجاعات، هناك عامل المناخ وأثره في كل ذلك؛ إن تذبذب التساقط أدى في الكثير من الأحيان إلى حدوث سنوات قحط أدت بدورها إلى الدفع باتجاه وجود مجاعات خطيرة، ومما كان يزداد في حدة هذه الأزمات إلى جانب الجفاف الكثير آفة غزو الجراد، وكان كلما أصاب البلاد ألحق أضرارا جسيمة بالإنتاج. مثلما حدث في السنوات التالية عام 1710، و1716 و1724 و1760 و1794 و1799 و1804 و

1813 و1816 و1822م⁽⁷⁶⁾. فعلى سبيل المثال ففي عام (1717م) حل الجفاف وأعقبتها المجاعة سنة (1130هـ / 1718م) فتركت خلفها أثراً كبيراً على أهالي مدينة الجزائر، ثم تلتها مجاعة أخرى يقول عنها أحمد شريف الزهار: "بعد ذهاب الاصبانيول في المرة الأخيرة سنة 1184هـ / 1769م، وقع الغلاء في القمح مدة ست سنوات، وأعطى الله القحط، وهو الجوع في الناس حتى صارت قيمة الصاع الجزائري أربع بجة والناس يموتون جوعاً في الأسواق"⁽⁷⁷⁾. وبزمن ليس ببعيد عن هذا

كما يرد نفس الشأن في رحلة هابنسترايت نصوصاً مهمة حول أهمية التطبيب بالأعشاب عند سكان الأرياف: "وقد لاحظت أن حمل باقة من النباتات في اليد هو بمثابة جواز مرور معروف ووسيلة ممتازة لضمان السلامة، لأن من يذهب للبحث عن النباتات ينظر إليه هناك بأنه متطبيب أو مداوي بالأعشاب... وفي هذا الصدد قدمت خدمات للمرضى الذي عرضوا علي حسبما أمكنني ذلك، وقد استعملت في ذلك بعض النباتات الشائعة التي تنمو بناحيتهم وأوضح لهم كيفية استعمالها فقد كان يدفعني إلى ذلك بأن نعمة الخالق جعلت الدواء الذي يحتاجونه في شكل نباتات تنمو عند أقدامهم، وكانت أتعابي كطبيب في هذه المعالجات لا تتجاوز غالباً تقديم كأس من الماء أو تناول قليل من الحليب اللذيذ..."⁽⁷²⁾، كما يبين هابنسترايت في عدة مواضع من رحلته احترام سكان الجزائر له لأنه طبيب، وبأنه كان يرد على حسن ضيافتهم بأن يقدم لهم بعض الأدوية: "سكان تلك الجهات من بربر وعرب كانوا يخصوننا بكميات أوفر من الطعام... ولكوني طبيب... فقد كان الطعام يقدم لي مباشرة بعد الآغا، وقد كلفتني هذه المعاملة بعض الأدوية التي كنت قد حضرتها مسبقاً، فقد كنت أقوم بتوزيعها على المرضى من جنود المحلة أو سكان تلك البلاد"⁽⁷³⁾.

كما عرف علاج آخر إلى جانب طب الأعشاب ما يعرف بالحجامة والتي يعتقد بفاعليتها كثيراً عند سكان الشرق الجزائري بمنطقة القالة خصوصاً، فهي طريقة تقليدية جداً وأحياناً تكون بعيدة كل البعد عن كونها صحيحة. كما عرف عن بعض أهالي البوادي والأرياف عموماً بالجزائر العثمانية إيمانهم بالخرافات والتمايم التي يعطيها لهم المرباطون لعلاج مرضاهم⁽⁷⁴⁾.

الحادثة قيل قبل تولي محمد الكبير الحكم ببابلك الغرب أصابهم قحط شديد دام حتى منتصف 1191هـ/1777م، وقد أشار إلى هذا القحط الشاعر الشعبي سيدي الأكحل بن خلوف في قوله:

ستين والثلاثين تقحط العباد ونصف عام

من بعد تذهب الكثر

ولما تولى على البابلك محمد الكبير ارتفع القحط وأخصب الناس. ولكن الأخباري مسلم بن عبد القادر يلاحظ أن القحط قد امتد بعد توليه للحكم حتى سنة 1192هـ/1778م⁽⁷⁸⁾، كما جاء ذكر لمجاعة أخرى في إحدى الوثائق الأرشيفية الفرنسية عام 1781م، جراء تذبذب التساقط⁽⁷⁹⁾. وهذا ما أثبتته محمد بن عبد السلام في حديثه عن نازلة سأل عنها بمدينة الأغواط عام (1196هـ/1782م) وتشمل بيع الحبوس أو الأوقاف الخاصة بالفقراء والمساكين زمن المسغبة، فأجاب بجواز بيع أرض المساكين عليهم في مثل هذه السنة وحياة أنفسهم أفضل عند الله من بقاء الأرض بعد هلاكهم، وقد أمر ببيع كثيرا منها تلك السنة بمدينة الأغواط للحاجة وللضرورة⁽⁸⁰⁾. وفي عام 1207هـ/1793م تحدث كتاب الصروف في تاريخ الصحراء وسوف عن حدوث قحط أضر بالحياة العامة للناس مما دفع بهم إلى الانتقال عن مضاربهم إلى أماكن أخرى: "وفي آخر هذه السنة وقع جذب بالصحراء أضر بالمواشي وتزاحم الناس على موقع المطر"⁽⁸¹⁾.

وفي أواخر العهد العثماني حلت على الجزائر فترة قاسية عانى منها السكان ضائقة خانقة بفعل توالي الكوارث المتعددة بدون انقطاع، ورغم أن مقاطعة الجزائر "دار السلطان عرفت نوعاً من الرخاء استمر حتى السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر، لكن أعقبتها مجاعات توالى بإقليم الجزائر الوسطى بصفة منتظمة،

فعلى سبيل المثال مجاعات عام 1800، و 1804م⁽⁸²⁾.

ونفس الأمر كان بالشرق الجزائري وقعت مجاعة شديدة سنة 1804م وأزمة قحط في قسنطينة، مهدت لها ثورة الشريف ابن الأحرش التي اندلعت في وادي الزهور من الأعمال التابعة لقسنطينة، وقد جاء عنها في كتاب صالح العنزي "مجاعات قسنطينة ما يلي: " في سنة 1219هـ/ 1804-1805م، زمان الأتراك وقعت مجاعة شديدة وقحط وهول أضر بلد قسنطينة ووطنها، ودام الحال كذلك عليهم مدة ثلاث سنين متوالية، والوالي في ذلك الزمان على البلد عثمان. سببها الجائحة بأكله واعداد حصاده في جهات كثيرة سيما ناحية القبلة⁽⁸³⁾ - يقصد الجنوب - وأعراسها كالحراكتة والنمامشة وأولاد يحيى بن طالب والخراب وغيرهم ولم تنجو من ذلك إلا ناحية السواحل والمناطق الصحراوية فإن زرعها لم يقع فيه ضرر كبير"⁽⁸⁴⁾.

وعلة هذه المجاعة⁽⁸⁵⁾ كما أشار العنزي مرض أصاب الزرع فأفسده، ثم جاء الجراد فأتم ما بقي، بالإضافة إلى الاضطرابات الناتجة عن الحروب المتتالية وانعدام الأمن الذي لم يشجع الناس على الحراثة ولا على الاهتمام بالأرض⁽⁸⁶⁾. وبنوع من التفصيل عن انعكاسات هذه الأوضاع المزرية على الحياة الاقتصادية يبين العنزي بقوله: "مات عثمان باي سنة 1219هـ/ 1804م، وتلفت خزائنه وكل ما احتوت عليه محلته من أرزاق وأملاك ومال ونحو ذلك، وهذه الواقعة مشهورة بوادي زهور وجلبنها هنا لأنها أحد الأسباب التي نشأت عنها المجاعة وقلة الحبوب من كثرة الهول واضطراب الرعية بموت الباي وتشتيت أهل محلته، فإن الأعراس قاموا على بعضهم بعضاً بالنهب والفساد، ومن أجل ذلك الاضطراب انعدمت الحراثة في تلك السنة

أيضاً في جهات كثيرة وفقدت حبوب الزرع بقيام ذلك الهول، وعز إخراجها وقل من يأتي بها للأسواق مخافة الطرقات وقتئذ، فحصلت للناس شدة ومجاعة... والحاصل أن ارتفعت أسعار الحبوب إلى ما لا نهاية فيبيع الصاع الواحد من البر وقتئذ بخمسة عشر الريال سكة الوقت، والصاع من الشعير بسبعة ريالات ودام القحط والغلاء في الحبوب كذلك مدة سنة كاملة وهي سنة 19 (يعني سنة 1219هـ / 1804م) ثم بعد ذلك نزل سعره شيئاً فشيئاً، غير أن حال الوطن لم يعتدل بعدها ولم يرجع إلى أصله إلا سنة (1223هـ / 1808م) (87) وفي خضم هذه المغبة هلك الكثير من الناس حتى العلماء، من بينهم الفقيه عبد القادر السنوسي ابن زرفة (88) وأخيه الفقيه الهاشمي وابن عمهما الأديب صاحب تأليف "فتح وهران" مصطفى بن عبد الله (89).

وفي الغرب الجزائري بعد الوباء الذي أصاب تلمسان أواخر القرن 12هـ / 18م عام 1787م والذي قال عنه الرحالة أبو القاسم الزياني: "كان عاماً في العمائر التي بينها وبين الجزائر، فما نزلنا منزلاً إلا وجدنا أهلها يدفنون موتاهم" (90) حتى أعقبته ثورة درقاوة عام 1805م، والتي انتقلت بدورها إلى تلمسان فجرت خلفها مجاعة ضارية ضربت أطناًها في البلاد فأرغمت أهلها إلى مهاجرتها إلى الحدود الغربية نحو المغرب الأقصى، فتلقوا ترحيباً ومساعدة مالية من سلطان المغرب وأقاموا عنده وبعد انتهاء المجاعة عادوا إلى تلمسان (91). ولم يلبث الأمر على الاستقرار حتى جاء بعده الجراد في سنة 1230هـ / 1815م يقول عنه أحمد الشريف الزهار: "أتى طائراً ثم غرس وأقام أياماً في الأرض ثم خرج وأكل الزرع والأشجار والثمار ووقع الغلاء في تلك السنة وأعطى الأمير - يقصد الداوي

علي باشا - القمح لجميع الخبازين أن يقوموا بعمل ما يلزم للبلاد لكن صار الناس يقتتلون على ذلك الخبز، وبقي الأمر كذلك إلى أن وجد الزرع الجديد، وقد أخصبت الأرض تلك السنة ورخصة الأسعار" (92)، فعن هذا الوصف الذي جاء به الشريف الزهار في تكاثر الجراد، فبصورة مشابحة ذكرها العياشي قبل ذلك فقرب زريبة حامد بقرية تسمى الكلاية: "سرى إليه - يقصد الجراد - طائفة من الحجاج فأخذوا منه ما استعانوا به في زادهم تلك المدة، وكان الجراد في إبان ولادته بيوضاً" (93). والملاحظ هنا أن تكاثر الجراد جاء مزامناً للوباء بهذه المنطقة عام (1060هـ / 1649م)، قد يكون تحصيل حاصل فبعد المجاعة جاء الوباء ليلحق بهما الجراد فيهلك الحرث والنسل وهذا ما حدث في كثير من الأحيان زمن الأوبئة والكوارث الطبيعية بالجزائر العثمانية.

فمن هذه الأخيرة نتكلم عن أسباب الآفة أي آفة الجراد وما ساعد على ظهورها الظروف المناخية السائدة بالجزائر، والمرتبطة بالمناخ الصحراوي في الجنوب وتأثيره على مناطق الهضاب العليا الرعوية في الوسط ومناطق التل الزراعية الخصبة المحاذية للبحر في الشمال، فكان زحفه متوقعاً كل أربع أو خمس سنوات، وأثره لا يتجاوز في غالب الأحيان تضرر بعض المحاصيل الزراعية، ولكن متى يتفاقم خطره عندما يشتد الجفاف لفترة طويلة نسبياً وتضطرب الأمطار المتأخرة بنسبة كبيرة متسببة في حدوث فيضانات مفاجئة، فإن ظهور الجراد بعد ذلك يكون شبه مؤكد واجتياحه للحقول أمر لا يمكن تجنبه، كما أن انتشار المجاعة وحلول الوباء بعده يكون نتيجة طبيعية لانهايار الإنتاج الزراعي وارتفاع الأسعار ارتفاعاً فاحشاً. وهذا ما أصاب مدينة الجزائر من موجات جراد لسنوات متتالية: 1798، 1799،

1800، 1804م، وقد اجتاحت الجراد كذلك قسنطينة سنة 1804م⁽⁹⁴⁾. وإذا ذكرنا مدينة الجزائر وقسنطينة وغيرها من المدن فبحقول أريافها تتغذى وإذا قحطت وجاعة أريافها بطبيعة الحال امتدت الفاقة لحواضرها ومدنها الأخرى.

أما عن المعضلة التالية فهي معضلة الجفاف وهي مرتبطة ارتباط وثيق باضطرابات الجو وقلة التساقط بإيالة الجزائر؛ فبالعودة إلى مواصفات المناخ المتوسطي السائد بالجزائر الشمالية فهي ظاهرة طبيعية، ولكن العامل الفعال في الحكم على حال البلاد هو توقيت نزول المطر⁽⁹⁵⁾؛ فإذا نزل في فصل الربيع بشهره مارس وأفريل، كانت بشرى خير بحلول عام يعم فيه الرخاء. أما إذا كان العكس وانقطعت الأمطار في هذا الفصل وخاصة إذا تكرر الأمر لسنة أو سنتين، فإنه لا مناص من ندرة المحاصيل وحلول القحط وشيوع الحاجة وتفاقم الفاقة بين أفراد الرعية بدو وحضر على حد سواء⁽⁹⁶⁾.

وبالجملة فمع الجفاف يأتي الجراد ومع الجراد يأتي الجوع ومن الجوع يأتي الوباء كل صاحب لما قبله أحياناً يتقدمه وأحياناً أخرى يكون سبباً له، وما بلاء الزلازل عن ذلك ببعيد، ولكن نستهلها ببعض التحليل عن دواعي المجاعات المتوالية على البلاد فأسبابها كما أشرنا عديدة ولكن أكثر ما يمس في العضد الجفاف وما أدراك ما الجفاف. فقلة استغلال الأمطار المتساقطة، وندرة السدود وانعدام استغلال المياه الجوفية، وعدم الاهتمام بالمياه الموجودة بأعالي الجبال في عمليتي الري والزرع، بالإضافة لقلة التساقط كل هذا خلق نوع من قلة الوفرة في الثروة المائية فحدثت مشاكل جمة للنشاط الزراعي في البلاد فجرت خلفها ندرة الغذاء فهلك العباد. ولكن هذا الأمر لا يمكن تعميمه على كال أرجاء الإيالة⁽⁹⁷⁾، إذ تذكر بعض الدراسات أن نظام السقي في فحص

مدينة الجزائر كان متطوراً نسبياً مقارنة بمعارف تلك الفترة وهو ما سمح بإقامة زراعية كثيفة للأشجار والخضار والحبوب في المناطق القريبة من دار السلطان، معتمدة في ذلك على مجموعة كبيرة من الآبار والعيون والسواقي والقنوات والصهاريج استغلت بكفاءة عالية. بينما لا نكاد نقف على أي إشارة تدلنا على استغلالها من طرف الفلاحين خلال تلك الفترة، بل العكس من ذلك تماماً فإننا على إشارات مختلفة في كتب الرحالة الغربيين والكتابات المحلية خلال تلك الفترة بندرة استغلال هذه الموارد، حيث تشير إلى جهل السكان لطريقة استغلال مياه منابع⁽⁹⁸⁾، ومن جهة ثانية لانتقالهم في الكثير من الأحيان إذا أعجزهم الحال للرعي في السنوات التي عرفت جفافاً حاداً⁽⁹⁹⁾.

أما عن الزلازل والتي تعتبر بفعل آثارها المدمرة من العوامل المساعدة على انتشار المجاعة واشتداد وطقتها نظراً للخسائر والدمار الذي تتسبب فيه، والاضطراب الذي نتج عنها من جراء تعطل أعمال الفلاحة وهجرة السكان وتحول الفلاحين من الحقل، وقد كانت الزلازل في الجزائر الشمالية بفعل تكوينها الجيولوجي وطبيعتها الطبوغرافية من الشدة والتواتر، ما يجعلها بحق أحد الأسباب المؤثرة في المواسم الفلاحية⁽¹⁰⁰⁾. ومن أشد الهزات الأرضية تدميراً زلزال 1217هـ / 1803م الذي ضرب الجزائر وعمالتها فترتب عنها خراب قرية القليعة فتهدمت "ومات بها خلق كثير تحت الهدم"⁽¹⁰¹⁾

كما تحدثت المصادر عن زلزلة عنيفة أصابت مدينة وهران وضواحيها عام 1790م، كما لم تحدث من قبل بقوتها؛ واشتدت على مدينة وهران أكثر من غيرها، إلى سقطت بها الدور والأبراج على أمم من النصارى يقصد الأسبان فأهلكوا بذلك، إلى أن اتخذ النصارى بيوتاً من اللوح، وقيل بأن تلك الزلزلة هي سبب

فتحتها⁽¹⁰²⁾، يقول ابن زرفة أن هذا الزلزال وقع في جوف ليلة التاسع والعشرين من محرم، سنة خمس ومائتين وألف (1205هـ)⁽¹⁰³⁾، فيما يذكر ابن سحنون أن الزلزلة وقعت ليلة السبت الأولى من صفر سنة خمس ومائتين وألف هجرية بعد مضي سبع ساعات ونصف من الليل⁽¹⁰⁴⁾. قال بأن عدد ضحايا هذا الزلزال سبعة آلاف (7000) قتيل وأربعة آلاف (4000) تحت الأنفاذ⁽¹⁰⁵⁾. ليختم العهد العثماني بالجزائر عام (1241هـ / 1829م) بزلزال مدينة البليدة يقول عنه الشريف الزهار: "كانت الزلزة التي تصدمت منها البليدة ومات فيها خلق كثير"⁽¹⁰⁶⁾.

ومما سبق يتضح أن المجتمع الجزائري تعرض في العهد العثماني إلى عدة كوارث طبيعية وآفات مختلفة أدت إلى زعزعت استقراره الاجتماعي والاقتصادي؛ بتناقص عدد السكان في كل من الأرياف والمدن. فقد كان للحالة الصحية والمعاشية للمجتمع تأثيراً حاسم على الوضع الديمغرافي والاقتصادي للمدينة والريف على حد سواء، وذلك نتيجة للتأثير السيئ للأمراض والأوبئة المهلكة التي كانت تبتلعها في فترات متلاحقة تكاد تكون غير منقطعة طيلة الفترة العثمانية، وكانت تبتلع هذه الأوبئة الجزائر نتيجة اتصالها المستمر بالخارج وانفتاحها على المبادلات التجارية ومنها يصدر للقرى والبادي والأرياف فيعم البلاء أرجاء البلاد هذا من جهة، ومن جهة أخرى فمع التشدد والتقصيف الذي عرفت به الإدارة فإنها كانت تقف دائماً إلى جانب الأهالي كلما تطلب الأمر ذلك، وأتضح موقف السلطة بجلاء عندما تعرضت مدينة الجزائر وضواحيها لزلزال عنيف عام 1217هـ / 1802م⁽¹⁰⁷⁾.

ومن جهة أخرى فمن النتائج الحالة المزرية في البايلاكات فرار الناس وتشتتهم في الآفاق، حيث فضل

سكان الأرياف الهروب إلى المناطق التي لم يصلها مرض الطاعون ولو كانت بعيدة وهو ما أثر على الوضع الاقتصادي والاجتماعي بهجر الأراضي وترك الممتلكات وافتقار كثير من الأسر نتيجة لذلك، وما زاد الأمور سوءاً غلاء المعيشة ومع قلة المنتج ارتفعت الأسعار فعجز الكثير من الناس على اقتناء ضروريات الحياة من غذاء، وهذا ما ذكره العياشي عند مروره بمدينة الأغواط وقراها المجاورة: "وجدنا الغلاء كثيراً عندهم مقدار مدين فاسيين بريال قمح"⁽¹⁰⁸⁾، ونفس الشيء قاله عن قرية الكراكة ضواحي البيض: "وجدناها في غاية ما يكون من الغلاء"⁽¹⁰⁹⁾. لتزيد حدة المعاناة عند العياشي وركب حجه مع الجوع خاصة في الطريق الرابط بين الأغواط ونواحي الظهرا وعلّة ذلك غلاء الأسعار بهذه المناطق: "كان أهل الركب قد جاعوا جوعاً عظيماً... بلغ الشعير قريباً من ريال للصاع، وبلغ الدقيق أكثر من ذلك، وبقيت لي هناك ناقة أحمل عليها كتب فبعتها بثلاث ريالات"⁽¹¹⁰⁾. ونفس الأمر تكرر في عهد أبو العباس الهلالي السجلماسي (1175هـ / 1764م) في كلامه عن الأغواط وبعض قراها فعن الأغواط يقول: "قرية كبيرة ذات نخل وشجر، ووجدناها غالية الأسعار"، وعن قرية تجموت شمال الأغواط يتذمر السجلماسي من غلاء أسعارها: "فسألناهم بكم الشعير عندهم فأخبرونا بما دل على غلائه، فلم نخرج عليهم.."⁽¹¹¹⁾، ونفس الحال عن قرية سيدي خالد: "وجدنا الشعير عندهم كاد لا يرى فضلاً عن ذكره"⁽¹¹²⁾.

فمع غلاء الأسعار وقلة الحاجة وتفشي الجوع والفاقة، انتشرت ظاهرة اللصوصية في الكثير من مناطق الجزائر العثمانية، ومع غياب في غالب الأحيان إحكام قبضة السلطة على الرعية بالإنفلات الأمني، ظهرت على الساحة قبائل احترفت مهنة السرقة؛ ومثال على

ذلك قبيلة عشاش في أقصى غرب بابلك الغرب تعيث في الأرض فساداً بقطع الطريق، وهو ما استدعى تدخل البايع بإرسال حملة على القبيلة ففرقتها في أرجاء الأرض، ونفس الإجراء اتخذ ضد قبائل المهديّة وأولاد علي بن طلحة والنمامشة والشائبية⁽¹¹³⁾ والذين انتهجوا نفس المنهج. ولكن للأسف لم يكن دور السلطة فعال على العموم في قمع اللصوص ومرزقة القبائل والأعراب المفسدين؛ فمن نصوص الرحلة وجد الدليل والشاهد وبكثرة خلاف لما قيل عن تحكم السلطة في زمام الأمور؛ فعن العياشي وبأقصى الجنوب الجزائري وبلاد أوكرت -خلف قرى توات- يروي قصة قطاع الطرق من أعراب تلك النواحي بقوله: "نزلنا بقرى الدغامشة"⁽¹¹⁴⁾ قرب زاوية سيدي عبد الله ابن طمطم⁽¹¹⁵⁾، وأنه من أهل الخير والدين، يطعم الواردين عليه في بلاد كاد الطعام أن يكون فيه دواء...ومما تواترت به الأخبار عن هذا السيد أنه لا يترك أحد من الأعراب ذلك البلد يأكل طعامه، فإن لم يشعر به حتى جلس بين الناس أقامه، ويقول لهم هؤلاء اللصوص لا أتركهم يأكلون طعامي يستعينون به على ظلم المسلمين"⁽¹¹⁶⁾، وبالتمعن فيما قيل في هذا النص وما يلفت الانتباه قوله: "في بلاد كاد الطعام أن يكون فيه دواء"، دليل آخر على تفشي الجوع في تلك البلاد الصحراوية، فدفعت الحاجة للبعض منهم كالأعراب، ضعاف النفوس للسرقة وسلب أرزاق الناس لأجل الغذاء.

كما تبنت بعض القبائل حرفة السرقة واللصوصية⁽¹⁾ بمنطقة الزاب والطهرا واقتران ظاهرة السرقة بالجوع والفاقة مثل: عرب أم القرار الغربية⁽²⁾، وعرب النمامشة وقبيلة أولاد صولة وأولاد نصر ابن بوعكاز

⁽³⁾، وبشهادة من ابن بحمان المصعبي عن ظلم هذه القبائل وتعيديها على حقوق الناس: كأولاد عكاز وأولاد صولة وغيرهم من كل طاع معاديا⁽⁴⁾

يقول عنهم محمد بن عبد السلام: "آل بوعكاز أشد الأعراب على الحجاج حراة وسرقة واختلاسا"⁽⁵⁾.

وبنوع من التفصيل عن أفة الجوع وارتباطه الوثيق بظاهرة اللصوصية يحكي العياشي ما هم بهم في رحلته بمنطقة الزاب: "نزلنا ظهراً بالمكان المسمى بالدويصة بينه وبين أولاد جلال نحو فرسخ وهناك تحقق الناس أمر العرب وأنهم معترضون الركب قاصدين أخذه معهم نحو من ثلاثمائة فارس، وأنهم ارتحلوا مجللهم ونزلوا أعلى واد سيدي خالد على حافتي الطريق، ومرادهم إذا توسطهم الركب وثبوا عليه رجالاً ونساء وصبياناً، وأخبرونا أهل البلد أنهم في غاية ما يكون من الجوع، وقالوا لنا لا طاقة لكم بهم ولو قاتلتموهم وقتلتم ما عسى أن تقتلوه. فإن ذلك لا يردعهم عنكم لشدة جوعهم"⁽⁶⁾.

وبنفس الموضع تقريباً قرب قرى بني جلال يتسلط أبناء هذه المنطقة على ركب الحج المغربي لأبي مدين الدرعي، ووصل بهم الأمر لقتال الحجاج، وأكرم الله وفده بأن ردهم عنهم خائبين⁽¹¹⁷⁾. وعن عرب النمامشة بمنطقة الزاب في الطريق قبل منطقة غزران يصفهم الورثاني بقوله: "فهم أقبح الناس وأكثرهم شراً، فمنهم من يأتي للسرقة، ومنهم من يأتي الخطفة، ولا يحكم بعضهم في بعض، ومع ذلك إنهم لم يكونوا في حكم سلطان تونس ولا في حكم باي قسنطينة، فإنهم هاربون في الصحراء"⁽¹¹⁸⁾.

والأمر مشابه مع السجلماسي وأعراب عين ماضي: "نزلنا قرب القرية، وهي قرية منقطعة عن العمارة، ذات ماء معين والأعراب يؤذون أهلها كثيراً

حتى أنهم ذكروا لنا أنهم تركوا الحرث لئلا تأكله الأعراب كما أكلوه في العام الماضي⁽¹¹⁹⁾. وقد تحدث السجلماسي عن نازلة وقعت بها وكان حاضراً في حكم قاضي هذه القرية، وفحوى المسألة سرقة أعرابي لفت أحد مزارعي القرية والذي أطلق عليه إسم البلدي فكان حكم القاضي ليس صائباً فعاتبه السجلماسي فرد قالاً: "إن هؤلاء الأعراب حراميون يفعلون أمثال ذلك كثيراً، فلو كلفنا المدعي عليهم البينة لضيعوا أموال الناس،...فنهيته عن العودة إلى مثل هذا الحكم...فأظهر الرجوع عن الحكم بذلك وبأشياء من نخطها ذكرها لي"⁽¹²⁰⁾

وقد سبقه لمثل هذا الأمر أبو ناصر الدرعي وعن عين ماضي وتكالب الأعداء على أهلها: "سلط الله عليهم مولاي عبد الملك، مزق أعضائهم وكسر عليهم الهيبة، وأخذ خزائن الأعراب وسط ديارهم زرعاً وسمناً وتمراً وأخذ عندهم ألف ريال ولم يترك لهم شيئاً"⁽¹²¹⁾.

فمن خلال ما سبق يتضح أذى الأعراب واستفحال أمرهم للغاية وقد أضروا بأهالي الأقاليم ضرراً بالغاً وأوصلهم في كثير من الأحيان للمهالك بالعديد من مناطق الجزائر العثمانية، فعن معاناة سكان قرية أبو سمغون وتسليحهم الدائم مخافة أعراب النواحي خاصة أعراب حميان، حتى في المواسم والأعياد لم يسلموا من شرهم، حتى صارت من عاداتهم اليومية التأهب للقتال، يروي عن ذلك العياشي وصلاته لعيد الفطر بمسجد أبو سمغون: "كان من عاداتهم أنهم يخرجون إلى المصلى بسلاحهم لا يخرج أحد بغير سلاح صغيراً كان أو كبيراً ويبيتون في المصلى أحجاراً يتخذونها غرضاً للرمي حتى في حال الصلاة والخطبة إلى أن فرغ الإمام من الخطبة"، يقول عنهم محمد بن عبد السلام أثناء رحلته عام (1196هـ/1782م): "وأهلها ضعفاء فقراء تنهبهم

أعراب حميان وغيرهم، ويأخذون منهم العطاء ويخزنونه لديهم"⁽¹²²⁾. ومن يقتال أولئك الأعراب ولا يؤدون إليهم الإتاوات، يسمى مجاهداً في عرف سكان قرية أولاد جلال: "من أكبر قرى الزاب...وهم في قوة ومنعة من العرب لا يؤدون إليهم إتاوة، ويسمون كل من لا يؤذي إتاوة للعرب بالمجاهدين وقد صدقوا في ذلك"⁽¹²³⁾.

فكل هذه الأدلة تشير إلى انتشار الفوضى وللأمن في العديد من مناطق بلاد الجنوب الجزائري خلال مرحلة الحكم العثماني، وهو ما يقيم الحجة على غياب نفوذ السلطة الحاكمة في فرض وجودها لأجل ضبط سلامة المسالك⁽¹²⁴⁾، كما يبدو واضحاً أن من أسباب تفشي ظاهرة النهب والسلب بهذه الربوع الصحراوية؛ البؤس الشديد والذي تعود أسبابه إلى قسوة ظروف المنطقة اقتصادياً، بسبب الجفاف المزمن، فمع قلة المياه يقل الكلاء، وهو ما دفع بالكثير من القبائل الرحل الأعراب إلى السطو على أموال وأموال الناس⁽¹²⁵⁾.

ومن أسباب الجوع والسرقة أيضاً وهما من توابعها، ما عرف بالفتن الداخلية ما ظهر منها وما بطن، فد يكون بين القبائل فيما بينها، أو حتى في القبيلة ذاتها، والتي كنت تشتعل من الفينة والأخرى في كثير من الأمصار كقرية زمورة وبني يعلى وقصر الطير موطن الرحالة الحسين الورثاني والذي قال عنهم: "فإن أشر الشرور في وطننا الفتنة والقتال بينهم، فليس أشر من هذا" وبريكة ومدكال وغيرها من المواطن ببايلك الشرق⁽¹²⁶⁾، وكذا الأمر شاع في المناطق الصحراوية بالجنوب الشرقي الجزائري يقول الورثاني: "أولاد دراج طائفة من العرب، وقد رأيت في بعض منهم من ربيعة،...وأولاد رحمة وأولاد مخلوف، فمهما طغت

إحدى الطوائف إلا أغرمت الآخرين، وبلد هؤلاء " بلاد الصحراء"...وهم أكثر من أن يحصوا وهم فرق، وقد تحصل الفتنة بينهم فيموت الثلاثون والأربعون في يوم واحد" (127).

وعن الفتنة بمدينة بسكرة والتي أضرت بالمدينة وما مجاورها فقد تحدث عنها كل من الدرعي والورتلاني والسجلماسي نقلاً عن العياشي بأنها: "ابتليت بتخلف الترك عليها وعساكر الأعراب يستولي عليها هؤلاء تارة وهؤلاء تارة أخرى...فاجتمعت عليها غارة العرب من الخارج وظلم الترك من الداخل، وقد أشرفت على الخراب" (128).

كما تسببت الأوبئة في التغيير جذري للبنية الاجتماعية للمجتمع الجزائري، فاندثرت بعض الأسر والقبائل بأكملها، كما هو الحال مع قبائل الأحمال (129) الذي سمى طاعون 1785 بـ "حبوبة المحال" نسبة إليهم بعد ما أفناهم عن آخرهم. كما ترتب عن كثرة المجاعات والكوارث الطبيعية قلة المحاصيل الفلاحية وهذا ما أدى إلى تفهقر الوضع الاقتصادي الذي عانت منه الطبقات الاجتماعية المحرومة التي ازدادت فقراً وتعاسة، مما جعلها تتفوق على نفسها. مثل ما كان مع قرية ألماية قرب واد الآشبور قريباً من مدينة الأغواط يقول عنها العياشي: "وليس فيها إل رجلان أو ثلاثة في غاية ما يكون من الضعف والجوع وزعموا أنهم شرفاء، ولم يجد الناس ما يشربون إلا الملح يبعونه بالطعام، وكان لطف الله بهم أن الركب المتقدم أقام هناك يوماً من المطر ماتت لهم ثلاثة من الإبل وأنتفع أولئك الضعفاء بلحمها" (130)، ونفس شيء قاله عن قبيلة أولاد سيدي مخلوف بأنهم فقراء على الرغم من أصلهم الشريف، فقد بلغ الجهد منهم كل مبلغ (131). وعن قرية دمد وأهلها الجياع يقول عنها السجلماسي: "ونكبتها قصداً لأن دأهم شدة أذية

الحجاج سرقة واختلاس، حتى أنهم يختلسون القدور وهي تغلي، نسأل الله العافية...ووجدناهم جياعاً ضعافاً فلم يعرضوا سماً ولا شعيراً" (132).

ومن الملاحظات المهمة والتي تستدعي التوقف عندها مع نصوص الرحلة بأن عام (1074هـ/1663م) وهو العام الذي مر به أبو سالم العياشي بالجزائر عام جوع وقحط وليس على الجزائر وحدها وحتى بتونس، كما أثبتته في قوله: "لأن السنة كانت سنة قحط وجوع"، وحتى مع رحلة السجلماسي يستشف ذلك (1150هـ/1737م) (133)، عكس زمن رحلة أبو العباس أحمد بن ناصر ر الدرعي (1120هـ/1709م-1121هـ/1710م) (134).

المراجع:

المصادر:

1. حمدان بن عثمان خوجة، المرأة، تح: محمد العربي الزبيدي، الجزائر: منشورات سلسلة التراث ANEP، ط: 2005.
2. عبد الله بن محمد العياشي، الرحلة العياشية، تحقيق يعد الفاضلي وسليمان القرشي، ج2، ط1، دار السويدي للنشر، الامارات، 2006.
3. أبو ناصر الدرعي، الرحلة الناصرية، ط1، دار السويدي للنشر، الامارات، 2011.
4. أبو القاسم سعد الله، مجموع رحلات (ضمنها رحلة ابن الدين الأغواطي محققة)، الجزائر: المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، طعة خاصة: 2011م.
5. هاينريش فون مالتسان، ثلاث سنوات في شمال غربي افريقيا، تر: أبو العيد دودو، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ج1.
- 6.
7. المصعبي إبراهيم بن بجمان، رحلة المصعبي، تح: يحي بن بهون حاج محمد، Mondial Print Service، ط: 1، غرداية، الجزائر، 2006م.
8. الورتلاني الحسين بن محمد السعيد، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار (رحلة الورتلانية)، تصحيح: محمد بن أبي شنب، جزائر، مطبعة الشرقية، ط: 1326هـ/1908م.

9. الناصري محمد أبو رأس (ت 1238هـ/1823م)، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته أو "حياة أبي راس الذاتية"، تح: محمد بن عبد الكريم، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ط: 1990م.
 10. ابن حمادوش عبد الرزاق (ت 1197هـ/1782م)، رحلة ابن حمادوش الجزائري (لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال)، تح: أبو القاسم سعد الله الجزائر: المؤسسة الجزائرية للفنون المطبعية، ط: 1404هـ/1983م.
 11. أبو العباس الهلالي السجلماسي (1114هـ/1175هـ)، التوجه لبیت الله الحرام وزيارة قبره عليه الصلاة والسلام، تح: محمد بوزيان بنعلي، تقديم: أحمد بوحسن، وجدة: مطبعة الجسور، ط: 2012م.
 12. أبو سالم عبد الله العياشي، الرحلة العياشية الصغرى أو "تعداد المنازل الحجازية (1068هـ/1658م)"، تح: عبد الله حمادي الإدريسي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط: 2013م.
 13. أبو عبد الله محمد بن عبد السلام الناصري (ت 1239هـ/1823م)، الرحلة الناصرية الكبرى، تح: المهدي الغالي، ط: 1434هـ/2013م، المملكة المغربية: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ج: 1.
 14. أبو عبد الله محمد الحضيكي السوسي (ت 1189هـ)، الرحلة الحجازية، تعليق: عبد العالي المدير، الرباط: المغرب مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، ط: 1432هـ/2011م.
 15. أبو القاسم الزباني، الترجمة الكبرى في أخبار المعمور براً وبحراً، تح: عبد الكريم، الرباط: دار النشر المعرفة، ط: 1412، 1991م.
 16. البوني أحمد بن قاسم (ت 1139هـ/1726م)، الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة، تقديم: سعد بوفلاقة، ط: (1428هـ/2007م)، عناية-الجزائر: مؤسسة بونة للبحوث والدراسات، ط: 1428هـ/2007م.
 17. محمد الصالح العنتري، فريدة منسية في حال دخول الترك بلاد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها، تح: يحي بوعزيز.
 18. محمد بن يوسف الزباني، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تح: المهدي البوعبدلي، الجزائر: عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ط: 1: 2013،
 19. أحمد شريف الزهار، مذكرات الحاج أحمد شريف الزهار نقيب إشراف الجزائر (1168-1246م/1754-1830م)، تح: أحمد توفيق المدني، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط: 1974.
 20. أبو عبد الله ابن عثمان المكناسي (1789م)، إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب.
 21. مسلم بن عبد القادر، أنيس الغريب والمسافر، تح: رابح بونار، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط: (1394هـ-1974م).
 22. صالح العنتري، مجاعات قسنطينة، تح: رابح بونار، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط: 1394هـ-1974م.
 23. التتلاي عبد الرحمان بن دريس، رحلة عبد الرحمان بن دريس التتلاي التواتي الجزائري إلى الجزائر، تح: مصطفى ضيف، محفوظ بوكراع، سلسلة رحلات جزائرية، دار المعرفة الدولية للنشر، ط: 1، تلمسان، الجزائر، 2011.
- المراجع:
1. عبد الرحمن المباركفوري (ت 1353هـ)، تحفة الأحوذ بشرح جامع الترمذي، بيروت: دار الكتب العلمية، ج: 4، ط: 14: نوفمبر 2010م،
 2. ابن نجيم المصري، رسالة فيما ضبطه أهل النقل في خبر الفصد بالطاعون، مخطوط بمعهد الثقافة والدراسات الشرقية، جامعة طوكيو-اليابان: نسخة مصورة من الموقع الإلكتروني: file:///C:/Users/Nae/Downloads/m0028_03.pdf
 3. عبد الرحمن بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار العلم للجميع، بيروت،
 4. مصطفى خياطي، الطب والأطباء في الجزائر العثمانية، الجزائر: منشورات ANEP، ط: 2013.
 5. أرزقي شويتام، نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل أفضيائه (1800م-1830م)، الجزائر: دار الكتاب العربي، ط: 1: 2011م
 6. تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني، تخريج أحاديث مجموعة فتاوي، إعداد: مروان كجك، بيروت: دار بن حزم، ط: 1998، السفر الثاني، مج 10.
 7. الزوييري محمد العربي، التجارة الخارجية للشرق الجزائري، الجزائر: الوكالة الوطنية للنشر والتوزيع، ط: 1972م.
 8. أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة ابن حمادوش حياته وآثاره، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ط: 1982، ص: 40. ينظر ترجمة لعبد الرزاق بن حمادوش الفصل الأول ص: .

9. عبد القادر علي حليمي، مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830م، بدون دار طبع، ط1: 1972م،
10. ابراهيم محمد الساسي العوامر، الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، تعليق الجيلاني بن ابراهيم العوامر، منشورات ثالة، الجزائر: 2007م، ص: 279.
11. : عبد الخالق أحمدون، الرحلة الحجازية الصغرى لأبي عبد الله محمد بن عبد السلام بن ناصر الدرعي (ت 1239هـ/ 1823م،
- المقالات العلمية:**
1. عائشة غطاس، الوضع الصحي للجزائر خلال العهد العثماني، **مجلة الثقافة**، عدد 76، سنة 13، 1983.
2. كاميلية دغموش، بن عمر حمادو، الوضع الصحي والمعيشي لبابلك الغرب الجزائري في أواخر العهد العثماني، **مجلة الحوار المتوسطي**، المجلد العاشر، العدد 2، جوان 2019م.
3. فوزية لزغم، الطب والأطباء بمدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني من خلال كتاب " الطب الشعبي الجزائري في بداية الاحتلال " لألبر فون شونبيرغ، **مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية**، مجلة دورية دولية محكمة، العدد 21، 4.
5. فاطمة بلهوراي، وصف الجنوب الصحراوي الجزائري في ظل الحكم العثماني من خلال "رحلة أبي العباس الهلالي السجلسماسي"، **المجلة الجزائرية للمخطوطات**، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران.
6. محمد الزين، نظرة على الأحوال الصحية بالجزائر العثمانية في أواخر عهد الدايات، **مجلة الواحات للبحوث والدراسات**، الجزائر: جامعة غرداية، العدد 17: (2012م).
7. فوزية لزغم، الطب والأطباء بمدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني من خلال كتاب " الطب الشعبي الجزائري في بداية الاحتلال " لألبر فون شونبيرغ، **مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية**، مجلة دورية دولية محكمة، العدد 21.
8. عبد الخالق أحمدون، الرحلة الحجازية الصغرى لأبي عبد الله محمد بن عبد السلام بن ناصر الدرعي (ت 1239هـ/ 1823م، المرجع السابق،

رسائل الدكتوراه والمجستير:

1. E,Guétin,**Guide du voyageur en Algérie**, Paris,L. Maison . Libraire-Editeur, 1848.
2. H-D.DE Grammont :Histoire D'Alger sous la domination turque (1515-1830),
3. L'Algérie un siècle avant l'occupation française (au 18 ème siècle),

- (19) - يعلق أرزقي شويتام على هذه الظاهرة بأنها لا زالت شائعة ليومنا هذا. ينظر: مرجعه السابق، ص: 281.
- (20) - باب ما جاء في كراهية الفرار من الطاعون، أخرج أحمد من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: قلت : يا رسول الله فما الطاعون؟ قال: "غدة كغدة الإبل... كالفار من الزحف". ينظر: عبد الرحمن المباركفوري (ت1353هـ)، **تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي**، بيروت: دار الكتب العلمية، ج4، ط14: نوفمبر 2010م، ص: 147.
- (21) - نسبة إلى يارسين مكتشف جرثومة الداء، وهي طبيب فرنسي من أصل سويسري (1863-1943م) .
- (22) - ابن نجيم المصري، رسالة فيما ضبطه أهل النقل في خبر الفصد بالطاعون، مخطوط بمعهد الثقافة والدراسات الشرقية، جامعة طوكيو-اليابن: نسخة مصورة من الموقع الإلكتروني: <file:///C:/Users/Nae/Downloads/m002803.pdf> ورقة 418.
- (23) - ينظر: عائشة غطاس، المرجع السابق، ص: 124.
- (24) - عبد الرحمن بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار العلم للجميع، بيروت، ص: 302.
- (25) - مزدور سمية، **المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط (588-927هـ/1192-1520م)**، ماجستير في التاريخ الوسيط، جامعة قسنطينة، 2008-2009، ص ص: 19، 20.
- (26) - نفسه، ص ص: 20، 21.
- (27) - يقول ابن النجيم المصري: "اختلفوا في حقيقة الوباء والصحيح الذي عليه المحققون انه مرض الكثير من الناس في جهة من الأرض دون سائر الجهات ويكون مخالفا للمعتاد من الأمراض الكثيرة ويكون مرضهم نوعاً واحداً بخلاف سائر الآفات". ينظر: المصدر السابق، ورقة 418.
- (28) - تم إحصاء 26 سنة من مرض الطاعون في الجزائر من أحد الباحثين، ومنهم من رصد في المؤلفات العربية 26 مرة بين 1552 و1784. مصطفى خياطي، **الطب والأطباء في الجزائر العثمانية**، الجزائر: منشورات ANEP، ط: 2013، ص: 46.
- (29) - محمد الصالح العنتري، **فريدة منسية في حال دخول الترك بلاد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها**، تح: يحيى بوعزيز، ص: 32.
- (30) - العياشي، المصدر السابق، ج2، ص: 127.
- (31) - المصدر نفسه، ج2، ص ص: 540، 541.
- (32) - محمد بن عبد السلام الناصري، **الرحلة الناصرية الكبرى**، المصدر السابق، ج1، ص: 223.
- (33) - المصدر نفسه، ج2، ص: 538.
- (34) - الورتلاني، المصدر السابق، ج1، ص ص: 200، 212، 213، 241.

témoignage de Shaw. Traduit par : Mac.Carthy. paris:Editione Imprimerie de carthage (2^eèd), 1968.

4. Paris:Editions loysel,1992
5. Laugier de Tassy,Histoire du royaume l'Alger

- (1) - ينظر: عائشة غطاس، الوضع الصحي للجزائر خلال العهد العثماني، ص: 124، أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص: 277.
- (2) - يسميها كمال صحراوي بحمى السيفيليس (La Syphilis) . ينظر: المرجع السابق، ص: 178.
- (3) - وقد أرجع المؤرخون وجود داء الجدري في منطقة إفريقيا إلى ثلاثة آلاف سنة ماضية، عائشة غطاس، المرجع السابق، ص: 126.
- (4) - ينظر: أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص: 278.
- (5) - حمدان خوجة، المرأة، المصدر السابق، ص ص: 47، 49، 50.
- (6) - ينظر: عائشة غطاس، المرجع السابق، ص: 127، أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص: 277.
- (7) - كمال صحراوي، المرجع السابق، ص: 179.
- (8) - E,Guétin, **Guide du voyageur en Algérie**, Paris,L. Maison . Libraire-Editeur, 1848,p 12.
- (9) - أبو ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص: 151 .
- (10) - ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص: 101.
- (11) - هاينريش فون مالتسان، المصدر السابق، ج3، ص: 154.
- (12) - ينظر: ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص: 101، تعليق: أبو القاسم سعد الله محقق الرحلة الهامش رقم 02، نفس الصفحة.
- (13) - ينظر: عائشة غطاس، المرجع السابق، ص: 127.
- (14) - ففي بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر تفشت الأمراض والأوبئة، فأصيب الجنود الفرنسيين بالحمى مما أضرهم لنقل 14000 مريض إلى مرسلها خلال بضعة أيام فجاءت كتابتهم لاذعة في هذا الشأن . ينظر: كمال صحراوي، المرجع السابق، ص: 179.
- (15) - ينظر: عائشة غطاس، المرجع السابق، ص: 127.
- (16) - ينظر: أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص: 280.
- (*) **الكين كينة (Quinine)**: دواء يستخرج من قشرة أشجار الكين المنتشرة في المناطق الإستوائية، تم اكتشافها في القارة الأمريكية في القرن السادس عشر.
- (17) - ابن حمادوش، المصدر السابق، ص: 84.
- (18) - أبو القاسم الزباني، المصدر السابق، ص: 151.

والفيروسات أمر صعب واستثنائي، غير أن هذا لا يعني انعدام تأثير الوباء تماماً، وإنما يمكننا القول أن الطبيعة الصحراوية أوجدت نوعاً الحصانة الطبيعية لسكان هذه المناطق ضد النشاط الوبائي. خير الدين سعيد، المرجع السابق، ص: 71.

(49) - ينظر: أحمد الشريف الزهرار، المصدر السابق، ص: 151.

(50) - يعد هذا من بين الأسباب الوجيهة التي الذي دفعت بالجزائر إلى براثن الإست دمار الفرنسي؛ وهو سوء الأوضاع الصحية وانعكاساتها على كل الأصعدة السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية. ينظر: أرزقي شويتم، نهاية الحكم العثماني في الجزائر...، ص: 84، سابق، عائشة غطاس، المرجع السابق، ص: 126.

(51) - ينظر: ابن حمادوش، المصدر السابق، ص: 121، عائشة غطاس، المرجع السابق، ص: 129.

(52) - ينظر: الزوييري محمد العربي، المرجع السابق، ص: 51.

(53) - ينظر: فوزية لزغم، الطب والأطباء بمدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني من خلال كتاب " الطب الشعبي الجزائري في بداية الاحتلال " لأبى فون شونبيرغ، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، مجلة دورية دولية محكمة، العدد 21، ص: 127.

(54) - ينظر: فوزية لزغم، المرجع نفسه، ص: 127.

(55) - ينظر: حمدان خوجة خوجة، أتحاف المنصفين. ص ص: 45، 46.

(56) - عائشة غطاس، المرجع السابق، ص: 129.

(57) - ينظر: محمد الحضيكي (ت 1189هـ)، الرحلة الحجازية، ص ص:

42، 83، 84، أبو ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص: 131.

(58) - التتلائي، المصدر السابق، ص: 242.

(59) - ينظر: فوزية لزغم، الإجازات العلمية لعلماء الجزائر العثمانية، ص: 68.

(60) - ينظر: عائشة غطاس، المرجع السابق، ص: 128.

(3) - L'Algérie un siècle avant l'occupation française (au 18 ème siècle), témoignage de Shaw. Traduit par j. Mac.Carthy. paris: Editione Imprimerie de carthage (2^eèd), 1968. p:48.

(4) - Paris: Editions loysel, 1992. p:82.. Laugier de Tassy, Histoire du royaume l'Alger.

(63) - ينظر: فوزية لزغم، الأطباء الأوروبيون بالجزائر خلال العهد العثماني، ص: 237.

(64) - ج. أو هانسترايت، المصدر السابق، ص: 77.

(65) - غادر الداوي علي خوجة قصره واستقر بالقصبة نتيجة الوباء، كما قام بطرد الطبيب الإسباني أساتني ولم يشفع في الطبيب الفرنسي توسال

(35) - العياشي، المصدر السابق، ج2، ص: 546.

(36) - ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص: 88.

(37) - ينظر: ابن حمادوش، المصدر السابق، ص: 91.

(38) - ينظر: أبو القاسم الزباني، الترجمانة الكبرى، ص: 149.

(39) - ينظر: أرزقي شويتم، نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل أُنهيته (1800م-1830م)، الجزائر: دار الكتاب العربي، ط1: 2011م، ص: 84.

(40) - محمد بن يوسف الزباني، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تح: المهدي البوعبدلي، الجزائر: عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ط1: 2013، ص: 269.

(41) - يقال أن أسباب هذا الوباء من المشرق كونه أتى من بر الترك في مركب مع رجل يدعى ابن سماية، فخلف بعده الكثير من الضحايا وصل عددهم في بعض الأحيان إلى خمسمائة جنازة كل يوم، ويسمى بالوبا الكبير، وطال هذا الوباء حتى 1211هـ. ينظر: أحمد الشريف الزهرار، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهرار نقيب إشراف الجزائر (1168-1246م/1754-1830م)، تح: أحمد توفيق المدني، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط: 1974، ص: 51.

(42) - ينظر: خير الدين سعيد، المجاعات والأوبئة في الجزائر خلال العهد العثماني (1700-1830م)، إشراف: شايب قداردة، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه علوم، الشعبة تاريخ حديث ومعاصر، الكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة 8 ماي 1945 قلمة، ص: 184.

(43) - ينظر: بوحجرة عثمان، الطب والمجتمع في الجزائر خلال العهد العثماني (1519-1830م) (مقاربة اجتماعية)، رسالة لنيل شهادة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة وهران 1 أحمد بن بلة، السنة الجامعية: 2014-2015م، ص: 56.

(44) - ينظر: تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني، تخريج أحاديث مجموعة فتاوي، إعداد: مروان كجك، بيروت: دار بن حزم، ط: 1998، السفر الثاني، مج 10، ص: 106، الزوييري محمد العربي، التجارة الخارجية للشرق الجزائري، الجزائر: الوكالة الوطنية للنشر والتوزيع، ط: 1972م، ص: 51.

(45) - أرزقي شويتم، المرجع السابق، ص: 84.

(46) - محمد الزين، نظرة على الأحوال الصحية بالجزائر العثمانية في أواخر عهد الدايات، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، الجزائر: جامعة غرداية، العدد 17: (2012م)، ص: 129.

(47) - ينظر: أبو عبد الله ابن عثمان المكناسي (1789م)، إحرار المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب، ص: 330.

(48) - أثبتت دراسات بأن قلة تأثير الأوبئة في المنطقة الجنوبية والتي غالباً ما تتميز بدرجة حرارة مرتفعة تجعل من عيش وتطور الطفيليات

حتى قيل أنه بيع لحم البشر في الأسواق. ينظر: خير الدين سعيدي، المرجع السابق، ص: 69.

(80) - ثم جوز الرهن تلك الأوقاف رجاء عودتها لأصحابها، بعد أنجلاء المسغبة. ينظر: محمد بن عبد السلام الناصري، الرحلة الناصرية الكبرى، المصدر السابق، ج1، ص: 903.

(81) - ينظر: براهيم محمد الساسي العوامر، **الصراف في تاريخ الصحراء وسوف**، تعليق الجيلاني بن ابراهيم العوامر، منشورات ثالة، الجزائر: 2007م، ص: 279.

(82) - محمد الزين، المرجع نفسه، ص: 129.

(83) - القبلة في الإطلاقات الجزائري والمغربي يراد بها الجنوب. ينظر: صالح العنتري، **مجمعات قسنطينة**، تح: رايح بونار، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط: 1394هـ - 1974م، ص: 28.

(84) - المصدر نفسه، ص: 28.

(85) - تم أحصاد 37 حالة مجاعة، منها 16 حالة كان سببها الجراد في القرن 18. ينظر: مصطفى خياطي، المرجع السابق، ص: 46.

(86) - ينظر: عبد الخالق أحمدون، الرحلة الحجازية الصغرى لأبي عبد الله محمد بن عبد السلام بن ناصر الدرعي (ت 1239هـ / 1823م)، المرجع السابق، ص 234، الزويدي محمد العربي، المرجع السابق، ص: 55.

(87) - صالح العنتري، المصدر السابق، ص: 33، 34.

(88) - صاحب الرحلة القمرية. ينظر: الفصل الثاني، ص: 71.

(89) - محمد الزين، المرجع نفسه، ص: 130.

(90) - أبو القاسم الزباني، الترجمة الكبرى، ص: 149.

(91) - محمد الزين، المرجع نفسه، ص: 130.

(92) - أحمد الشريف الزهار، المصدر السابق، ص: 117.

(93) - العياشي، المصدر السابق، ج2، ص: 537.

(94) - ينظر: محمد الزين، المرجع السابق، ص: 131، الزويدي محمد العربي، المرجع السابق، ص: 55.

(95) - يشير الكثير من الرحالة للجفاف الذي عانت منه الجزائر أمثال: العياشي والسجلماسي، على عكس زمن أبو العباس بن نصر الدرعي ومحمد بن عبد السلام الناصري (1196هـ/1782م) وخاصة هذا الأخير في رحلته الناصرية الكبرى يشير لكثرة التساقط بغدران الماء في المناطق التي مر بها في منطقة الظهرا والزاب. ينظر: محمد بن عبد السلام الناصري، المصدر السابق، ص: 197، 203، 208، 209.

(96) - ينظر: محمد الزين، المرجع نفسه، ص: 131.

(97) - ينظر: خير الدين سعيدي، المرجع السابق، ص: 75، 76.

(98) - ينظر: أو. هابنسترايت، المصدر السابق، ص: 60.

(99) - ينظر: خير الدين سعيدي، المرجع السابق، ص: 75، 76.

(100) - ينظر: محمد الزين، المرجع نفسه، ص: 131، 132.

(101) - أحمد الشريف الزهار، المصدر السابق، ص: 83.

(DR TOUSEL) الذي أرغم على مغادرة الأيالة الجزائرية، فلة قشاعي، المرجع السابق، ص: 240، 241.

(66) - ينظر: فوزية لزغم، الأطباء الأوربيون بالجزائر خلال العهد العثماني، ص: 238.

(67) - أحمد بن قاسم بن محمد ساسي البوني (ت 1139هـ/1726م): هو أبو العباس أحمد بن قاسم بن محمد ساسي البوني ولد ببونة المعروفة اليوم بعناية عام (1063هـ/1653م)، يعتبر أشهر علماء هذه الأسرة وواسطة عقدها، أخذ على عدة علماء من المشرق والمغرب برز في علم الحديث، الفقه، التصوف، النحو التاريخ، الطب، وله مؤلفات بلغت 100 مؤلف بين مختصر ومطول منها: التعريف بما للفقير من تأليف، الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة. ينظر: أحمد بن قاسم البوني، **الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة**، تح: سعد بوفلاقة، عناية-الجزائر: مؤسسة بونة للبحوث والدراسات، ط1: (1428هـ / 2007م)، فوزية لزغم، البيوتات والأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني، ص: 182، 183.

(68) - أبو القاسم سعد الله، **الطبيب الرحالة ابن حمادوش حياته وآثاره**، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ط: 1982، ص: 40. ينظر ترجمة لعبد الرزاق بن حمادوش الفصل الأول ص: .

(69) - عبد القادر علي حليمي، **مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830م**، بدون دار طبع، ط1: 1972م، ص: 274، فوزية لزغم، المرجع نفسه، ص: 234.

(70) - ج. أو. هابنسترايت، المصدر السابق، ص: 77.

(71) - حمدان خوجة، المصدر السابق، ص: 36.

(72) - ج. أو. هابنسترايت، المصدر السابق، ص: 56، 57.

(73) - المصدر نفسه، ص: 57، 58.

(74) - ينظر: فوزية لزغم، الأطباء الأوربيون بالجزائر خلال العهد العثماني، ص: 235.

(75) - محمد الزين، نظرة على الأحوال الصحية بالجزائر العثمانية في أواخر عهد الدايات، ص: 2.

(76) - ينظر: عائشة غطاس، الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر (1700-1830م) (مقاربة اجتماعية واقتصادية)، إشراف: مولاي بالحميسي، اطروحة لنيل شهادة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، السنة الجامعية: (2000م-2001م)، ص: 56.

(77) - أحمد الشريف الزهار، المصدر السابق، ص: 31.

(78) - ينظر: مسلم بن عبد القادر، **أنيس الغريب والمسافر**، تح: رايح بونار، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط: (1394هـ - 1974م)، ص: 24.

(3) - H-D.DE Grammont :Histoire D'Alger sous la domination turaue (1515-1830), p278.

- (2) - يقول عنهم محمد بن عبد السلام: "أهل سرقة واختلاسات" ينظر: الرحلة الناصرية الكبرى، ج1، ص: 192.
- (3) - ينظر: المصدر نفسه، ج2، ص: 538، 539.
- (4) - ابن بحمان المصعبي، المصدر السابق، ص: 68.
- (5) - محمد بن عبد السلام، المصدر السابق، ج1، ص: 209.
- (6) - ابن بحمان المصعبي، المصدر السابق، ج2، ص: 544.
- (117) - والوجه له نفس الملامح وإن كان في أزمنة متعاقبة؛ على تسلط الأعراب بالزباب على ركب الحج المغربي كزمن محمد الطيب الفاسي، وإن كان هذه المرة أخذ أمير ركبهم بالحيلة والفرار منهم. ينظر: محمد الطيب الفاسي (ت1110هـ/1170هـ)، الرحلة الحجازية، المصدر السابق، ص: 222، أبو مدين الدرعي، رحلة أبو مدين الدرعي (1152هـ/1739م)، مخطوط سابق: و241 و.
- (118) - الورثاني، المصدر السابق، ج1، ص: 236.
- (119) - السجلماسي، المصدر السابق، ص: 141.
- (120) - المصدر نفسه، ص: 142.
- (121) - أبو ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص: 130.
- (122) - ينظر: العياشي، المصدر السابق، ج2، ص: 548، السجلماسي، المصدر السابق، ص: 144، محمد بن عبد السلام، المصدر السابق، ج1، ص: 193.
- (123) - لكن المصعبي يوجه نقد بشعره لبني جلال في رحلته ويتهمهم بتعديهم على ركب الحج المغربي الفيلالي الذي كان معهم: رجال بني جلال غارت بخيلهم طليعة شمس إثر ركب فلالي
- المصعبي، المصدر السابق، ص: 69، السجلماسي، المصدر نفسه، ص: 138.
- (124) - وبسبب غياب الأمن في الكثير من المسالك التي يمر بها الحجاج سواء في المشرق أو المغرب ولكن بالصحراء الجزائرية في العهد العثماني على الخصوص يستوجب الحذر؛ وهذا ما أكده العياشي في وصيته لصاحبه في رحلته الحجية الصغرى الموسومة ب"تعداد المنازل الحجازية أو التعريف والإنجاز ببعض ما تدعو الضرورة إليه في طريق الحجاز (1068هـ/1658م) في قوله: "وخذ لنفسك ما تحتاج إله من البارود والرصاص، وأخذ لأصحاب ولنفسك مدافع فإنما في الطريق هيبتة، وأي هيبة فاستكثر منها جهدك، وأمر من يستمتع لك بذلك، فإنهم نعم السلاح لمن هو في تلك الطريق"، ينظر: أبو سالم العياشي، الرحلة العياشية الصغرى، تح: عبد الله حمادي الإدريسي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط: 2013م، ص: 51، محمد بن عبد السلام، المصدر السابق، ج1، ص: 216.
- (125) - ينظر: فاطيمة بالهوارى، المرجع السابق، ص: 44.
- (102) - محمد بن يوسف الزباني، دليل الحيران وأنيس السهران، ص: 270.
- (103) - ينظر: ابن زرقا، الرحلة القمرية، المصدر السابق، ص: 253.
- (104) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص: 211.
- (105) - ينظر: كاميلية دغموش، بن عمر حمادو، الوضع الصحي والمعيشي لبابلك الغرب الجزائري في أواخر العهد العثماني، مجلة الحوار المتوسطي، المجلد العاشر، العدد 2، جوان 2019م، ص: 341.
- (106) - أحمد الشريف الزهار، المصدر السابق، ص: 155.
- (107) - ينظر: المصدر نفسه، ص: 155.
- (108) - ينظر: العياشي، المصدر السابق، ج2، ص: 546.
- (109) - ينظر: المصدر نفسه، ج2، ص: 548.
- (110) - ينظر: العياشي، المصدر السابق، ج2، ص: 548.
- (111) - السجلماسي، المصدر السابق، ص: 143.
- (112) - المصدر نفسه، ص: 155، ينظر: فاطمة بلهوارى، وصف الجنوب الصحراوي الجزائري في ظل الحكم العثماني من خلال "رحلة أبي العباس الهلالي السجلماسي"، المجلة الجزائرية للمخطوطات، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، ص: 43.
- (113) - قامت هذه القبائل بمنطقة غسران وهو واد جاري عليه دشرة عامرة بمنطقة الزاب، كانت تسكنها الظلمة الفجرة النمامشة والشائبة، فأخذهم الله أخذاً وبيلاً... فسلط الله عليهم بعض أمراء الترك ومن أنضاف إليهم من الأعراب، فأجلوهم لنواحي إفريقية من جهة تونس. ينظر: محمد بن عبد السلام الناصري، المصدر السابق، ج1، ص: 242.
- (114) - الدغامشة: ضبطها ابن ملبح بالعين (الدعامشة)، وسماها الإفرائي في الصفوة الدغامسة، هي قرى كثيرة بقرب بلاد توات. ينظر: أنس الساري والسارب، المصدر السابق، ص: 30، محمد بن الحاج الإفرائي، صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، المصدر السابق، ص: 169.
- (115) - سيدي عبد الله ابن طمطم: هو أبو محمد سيدي عبد الله ابن طمطم الدغامسي من المشاهير هناك بالولاية والفضل، ينظر: الإفرائي، المصدر السابق، ص: 169، محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، ج2، ص: 405.
- (116) - العياشي، المصدر السابق، ج1، ص: 80.
- (1) - انتشرت ظاهرة اللصوصية والصعلكة خاصة من أعراف البوادي على العموم وعلى ركب حج المغربي خصوصاً. لما كان يحمله معه من الزاد الضخم نظراً لبعده المسافة المؤدية إلى الحجاز. وهذا يفسر استعانة الحجاج بالجنود والفرسان للحماية من اللصوص. ينظر: عبد الخالق أحمدون، الرحلة الحجازية الصغرى لأبي عبد الله محمد بن عبد السلام بن ناصر الدرعي (ت1239هـ/1823م، المرجع السابق، ص: 233.

(126) - الورثاني، المصدر السابق، ج1، ص3، ص ص: 191، 195، 375، 384.

(127) - المصدر نفسه، ج1، ص ص: 196، 198.

(128) - العياشي، المصدر السابق، ج2، ص: 540، أبو ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص: 145، السجلماسي، المصدر السابق، ص: 166، الورثاني، المصدر السابق، ج1، ص ص: 200، 203.

(129) - قبائل الأحمال: أصلها من التل الكبير من مصر، بعث بها العبيديون إلى المغرب الأوسط، اقترن اسم هذه القبيلة بقبائل سويد المتحالفة مع الأسبان، فأبادتها السلطة العثمانية لهذه الخيانة، ومن بقي منهم نزلوا في المالح وسبق ومستغانم وتنس وإقليم الشلف، وقيل أنه بقي منهم سوى مجاهر بناحية مستغانم، وفليطة بناحية مينا. كما كانت قبيلة المحال التي يعود نسبها إلى سويد بن عامر بن مالك بن زغبة، قوية تهاجم القبائل الضعيفة وتقطع الطريق، فقام الباي عصمان بتفريق شملهم و طارد بعضهم إلى الصحراء وبعضهم إلى الشرق، بينما طلب آخرون الأمان وخضعوا لسلطة البايلك. ينظر: كمال صحراوي، المرجع السابق، ص: 264.

(130) - العياشي، المصدر السابق، ج2، ص: 548.

(131) - تستوطن أرضاً قريبة من قرية أولاد جلال. ينظر العياشي، المصدر نفسه، ج2، ص: 546.

(132) - الواقعة بين مدينة الأغواط وقرية عمورة، ذكرها العياشي باسم دمك. ينظر: العياشي، المصدر السابق، ج2، ص: 546، السجلماسي، المصدر السابق، ص: 152.

(133) - تمت هذه الرحلة في يوم الخميس من 30 جمادى الآخرة من السنة الهجرية 1150هـ الموافق 6 أكتوبر 1737م، كانت الانطلاقة من الزاوية الزينية بإقليم سجلماسة بجنوب المغرب الأقصى إلى توزر التونسية مروراً بالمنطقة الصحراوية الجزائرية، فتم خلالها ذكر عدد هام من أسماء المناطق الحضرية والبدوية على طول هذا الخط كمدينة سجلماسة، سهلة، البريكات، ماء دلس، واد الصفصاف، وادي جبر، مسور، القنادسة، بشار، واكدة، زريف، المعمر، أم ألياس، فيقيق، المقرار، الكراكدة، بوسمغون، الغاسول، عين ماضي، تاجموت، دمد، أولاد جلال، بسكرة، سيدي عقبة، الزرايب (زريبة الوادي)، الشبيكة، حامة، توزر. ينظر: السجلماسي، المصدر السابق، ص ص: 72، 169، فاطيمة بالهوارى، المرجع السابق، ص: 41.

(134) - ينظر: العياشي، المصدر السابق، ج1، ص: 127، وأبو ناصر الدرعي، والسجلماسي.